أدب الحوار والمناظرة في رسالة الليث بن سعد إلى مالكٍ بن أنس

إعـــداد:

د. عبد العزيز سيد هاشم
دكتوراه في الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

أدب الحوار والمناظرة في رسالة الليث بن سعد إلى مالكٍ بن أنس

د. عبد العزيز سيد هاشم
دكتوراه في الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم جامعة القاهرة

• **المستخلص:**

للحوار أهمية كبيرة ودور مهم في التواصل والتفاهم مع الآخرين، فهو وسيلة للتعارف والتآلف، وهو أسلوب من أهم أساليب التربية الإسلامية وأفضلها ومنهج للدعوة والإصلاح. يقصد به إقامة الحجة، ودفع الشبهة، وبيان الفاسد من الأقوال. وهو تعاون بين المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها. وتراثنا الإسلامى مليء بالكثير من نماذج الحوار والمناظرات المثمرة بين الأئمة والعلماء، ونحن فى حاجة شديدة إلى هذه الصور لتكون لنا قدوة ونبراسًا يستضيء به شبابنا؛ فيسيرون على هدى من السلوك الذى ينهل من معين الكتاب والسنة، ويعمل بالحق ويجاهد فى سبيله. والإمام الليث بن سعد أحد هؤلاء العلماء البارزين الذي ربطت الصداقة والمحبة بينه وبين إمام المدينة مالك بن أنس، وكانت تجري بينهما لقاءات ومراسلات أثمرت كثيرًا من الفوائد العلمية في الفقه والأصول والأخلاق والآداب. وقد اختلفا في الكثير من المسائل الفقهية، وكان الخلاف بينهما مثالا للحرص على الحقيقة وأنموذجًا في شجاعة العالِم في مواجهة الخطأ. وجاءت هذه الدراسة الموجزة لتحاول تسليط الضوء على الجوانب الخلقيَّة وآداب الحوار والمناظرة بين هذين الإمامين الكبيرين من خلال رسالة الإمام الليث إلى الإمام مالك. أسباب اختيار الموضوع: ١- ما أشرت إليه – فيما سبق- من أهمية الحوار وحاجتنا إليه لاحتواء الصراعات والاختلافات، ودعم أواصر التآلف والمحبة بين الناس. ٢- أهمية رسالة الليث بن سعد كأنموذج رفيع في آداب الحوار بين العلماء. استعان الباحث في دراسته بالمنهج الوصفي والمنهج المقارن والمنهج التحليلي. احتوى هذا البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ في المقدمة تناولتُ أهمية الموضوع، وأسباب اختياره؛ والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج الدراسة. واحتوى المبحث الأول على ترجمة الليث. وتناولت في المبحث الثاني مفهوم الحوار والمناظرة وأهميتهما. ثم تناول المبحث الثالث آداب الحوار والمناظرة في رسالة الليث بن سعد إلى أنس بن مالك.

الكلمات المفتاحية: الحوار – المناظرة – الجدل - أدب الحوار – أدب المناظرة – أدب البحث والجدل والمناظرة – الليث بن سعد – مالك بن أنس – رسالة الليث بن سعد إلى مالك بن أنس – عمل أهل المدينة - التلطف وحسن الاستهلال - الإخلاص والصدق – التواضع - تقدير الخصم واحترامه - حسن الاستماع - الحلم وسعة الصدر - الرفق والرحمة - القول الحسن - الأمانة والموضوعية - التجرد والإنصاف - حُسن الختام

The literature of dialogue and debate in the letter of Al-Laith bin Saad to Malik bin Anas

Dr. Abdul Aziz Sayed Hashem

Abstract

Dialogue has great importance and an important role in communication and understanding with others, as it is a means of acquaintance and harmony, and it is one of the most important and best methods of Islamic education and a method of advocacy and reform. It means establishing the argument, repelling suspicion, and clarifying the corrupt sayings. It is a cooperation between debaters to know and reach the truth.Our Islamic heritage is full of many models of dialogue and fruitful debates between imams and scholars, and we are in dire need of these images to be our role models and a guide for our youth؛Imam Al-Laith bin Saad is one of these prominent scholars who had friendship and love between him and the Imam of Medina, Malik bin Anas, and meetings and correspondence were held between them that resulted in many scientific benefits in jurisprudence, fundamentals, ethics and literature. They differed on many matters of jurisprudence, and their disagreement was an example of concern for the

truth and a model of the world's courage in the face of error. This brief study attempts to shed light on the moral aspects and the etiquette of dialogue and debate between these two great imams through Imam Al-Laith's letter to Imam Malik.Reasons for choosing a topic:What I mentioned above about the importance of dialogue and our need for it to contain conflicts and differences, and to support the bonds of harmony and love between people.The importance of the message of Al-Laith bin Saad as a high model in the etiquette of dialogue between scholars.Study Methodology: The researcher used the descriptive method, the comparative method, and the analytical method.Research Plan: This research contained an introduction, three sections and a conclusion; in the introduction dealt with the importance of the topic, the reasons for choosing it, previous studies, the research plan, and the study methodology. The first section contained the translation of Al-Laith. In the second section, it dealt with the concept of dialogue and debate and their importance. Then the third section dealt with the etiquette of dialogue and debate in the letter of Al-Laith bin Saad to Anas bin Malik.

Key words :Dialogue – Debate – Controversy – Dialogue Literature – Debate Literature – Literature of Research, Controversy and Debate – Al-Laith bin Saad – Malik bin Anas – Al-Laith bin Saad's letter to Malik bin Anas – The work of the people of Medina – Kindness and good initiation – Sincerity and honesty – Humility – Appreciation and respect for the opponent – Good listening – Dream and patience – Kindness and mercy – Good saying – Honesty and objectivity – Impartiality and fairness – Good conclusion

• مقدمة:

للحوار أهمية كبيرة ودور مهم في التواصل والتفاهم مع الآخرين، فهو وسيلة للتعارف والتآلف، وهو أسلوب من أهم أساليب التربية الإسلامية وأفضلها؛ ذلك لأنه يترك المجال للأطراف المتحاورة لإبداء وجهات النظر وتبادل الآراء وتلاقح الأفكار؛ فيتعاون المتناظرون على معرفة الحقيقة والتَّوصُّل إليها، ويكشف كل طرف ما خفي على صاحبه؛ مما يسهم في تقريب وجهات النظر، وتضييق هوة الخلاف، وتصحيح المفاهيم، وحِل المشكلات، وتجاوز العقبات، وإيجاد حل وَسَط يرضي الأطراف، فتُفضُّ المنازعات، وتُحَلُّ الخلافات، وتُحقن الدماء.

والحوار منهج للدعوة والإصلاح، اتبعه الأنبياءِ عليهم السلام مع أقوامهم. وقد دعا القرآن الكريم إلى أن نتحاور مع الآخرين حوارًا رفيعًا مهذبًا؛ فقال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

فلا يُقْصَد من الحوار مجابهة الخصم وإفحامه ومحاولة الظهور عليهِ وتعجيزه عن الرد، وإنما المقصود والغاية منه الوصول إلى الحق، وإقامة الحجة، ودفعُ الشبهة، وبيان الفاسد من الأقوال. فالحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس.

وتراثنا الإسلامى مليء بالكثير من نماذج الحوار والمناظرات المثمرة بين الأئمة والعلماء، ونحن فى حاجة شديدة إلى هذه الصور لتكون لنا قدوة

ونبراسًا يستضيء به شبابنا؛ فيسيرون على هدى من السلوك الذى ينهل من معين الكتاب والسُّنة، ويعمل بالحق ويجاهد فى سبيله.

والإمام الليث بن سعد أحد هؤلاء العلماء البارزين الذين سَخَّروا حياتهم لله، وأجهدوا أنفسهم في طلب العلم واتباع الأثر، وهو أحد السلف الذين ضربوا أروع الأمثلة في الزهد والإخلاص والتجرد واليقين، وكانت له مكانة بين علماء عصره حيث بلغ ذروة الرئاسة وتربع على قمة الرواية والدراية. ولم يحظ من الشهرة بالقدْر الذي يستحقه رغم ما عُرِفَ به من علم وفقه واتباع للأثر.

وقد ربطت الصداقة والمحبة في الله تعالى بين إمام مصر الليث بن سعد وبين إمام المدينة مالك بن أنس، وكانت تجري بينهما لقاءات ومراسلات أثمرت كثيرًا من الفوائد العلمية في الفقه والأصول والأخلاق والآداب. وقد اختلفا في الكثير من المسائل الفقهية، وكان الخلاف بينهما مثالا للحرص على الحقيقة وأنموذجًا في شجاعة العالِم في مواجهة الخطأ، وقدرته على الرجوع إلى الحق، وما زال أهل العلم يذكرون رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس والتي كانت جوابًا وردًّا على رسالة سابقة له من الإمام مالك، وقد حوت الرسالتان من الفوائد والكلام الجامع والاختصار البارع فيما تجوز مخالفته وما لا يجوز، وما يصح في الأدلة وما لا يصح.

وجاءت هذه الدراسة الموجزة لتحاول تَسْليط الضوء على الجوانب الخُلُقِيَّة وآداب الحوار والمناظرة بين هذين الإمامين الكبيرين من خلال رسالة الإمام الليث إلى الإمام مالك.

• أسباب اختيار الموضوع:

- ما أشرت إليه – فيما سبق- من أهمية الحوار وحاجتنا إليه في الدعوة وفي تقريب وجهات النظر واحتواء الصراعات والاختلافات، ودعم أواصر التآلف والمحبة بين الناس.
- أهمية رسالة الليث بن سعد كأنموذج رفيع في آداب الحوار بين العلماء. وقد جاءت الرسالة في أسلوب شيق من حيث المقدمة البارعة والتسلسل العلمي المنطقي وقوة الحجة وبناء الفروع الفقهية على الأصول وحسن الختام؛ مما أثار إعجابي؛ فحرصتُ على دراستها من الوجهة الفلسفية الخلقية محاولا إبراز ما فيها من أدب الحوار والمناظرة.

• الدراسات السابقة:

من خلال تتبع المصادر والمراجع في المكتبات العربية لم أجد – على حد علمي – دراسة سابقة تناولت رسالة الليث بن سعد بالبحث والتحليل والاهتمام اللائق بها من منظور فلسفي أخلاقي يقوم بتحليل مضامينها الأخلاقية، ويكشف عن الآداب والقيم المستنبطة من الحوار بين الإمامين الجليلين. وهذا ما ستعني به هذه الدراسة بإذن الله تعالى. وأود أن أشير إلى أن أغلب الدراسات التي تناولت هذه الرسالة تناولتها من الجانب الفقهي والجانب

الأصولي، ومع أن صلة هذه الدراسات غير مباشرة بموضوع بحثي فيمكن أن تفيد في بعض جوانب البحث.

• منهج الدراسة:

وقد حرصتُ على أن تعتمد الدراسة على النصوص الأصلية التي تُستَنبط منها النتائج والأحكام الصحيحة، وجمع المادة العلمية من مصادرها مع العيش في جو النص لمحاولة فهمه على أفضل نحو ممكن، ومراعاة أصول البحث العلمي – قدر الإمكان- واستخدام أساليب الاستقراء والاستدلال والنقد والتحليل ثم الاستنباط والمقارنة للوصول إلى النتائج. مع الحرص على الالتزام في البحث بالموضوعية والجمع بين التحقيق ودقة النظر وسهولة العرض ووضوح الأفكار ويسر العبارات، والاهتمام بالنقد العلمي الذي لا يتأثر بعاطفة أو هوى، ولا يخضع لرأي أحد من السابقين، بل يلتزم بالموضوعية، وينبثق من النصوص الأصلية، مستعينًا بالمنهج الوصفي والمنهج المقارن والمنهج التحليلي.

• خطة البحث:

احتوى هذا البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ في المقدمة تناولتُ أهمية الموضوع، وأسباب اختياره؛ والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج الدراسة. واحتوى المبحث الأول على ترجمة الليث. وتناولت في المبحث الثاني مفهوم الحوار والمناظرة وأهميتهما. ثم تناول المبحث الثالث آداب الحوار والمناظرة في رسالة الليث بن سعد إلى أنس بن مالك.

وختامًا: فإنني أقدم هذا الجهد المتواضع راجيًا أن يتقبله الله سبحانه، وأن ينفع به، وأن يتجاوز عما قد يكون فيه من عيب أو زلل، وأن يرشدنا إلى الحق، وأن يعصمنا من شرور أنفسنا، كما نسأله أن يجعل عملنا خالصًا لوجهِهِ وابتغاءِ مرضاتِه، فهذا مرادنا وقصدنا، وعلى الله قصد السبيل، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾.

• المبحث الأول: ترجمة الإمام الليث بن سعد

من المستحسن في بداية هذه الدراسة أن نترجم بإيجاز للإمام الحافظ عالم الديار المصرية أبو الحارث الليثِ بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، مولى آل خالد بن ثابت بن ظاعن من بني فهْم.

• نشأته وطلبه للعلم:

ولد الليث بن سعد سنة أربع وتسعين هجرية في قرية قلقشندة(١). وهي قرية تقع جنوب مركز طوخ بمحافظة القليوبية بمصر(٢). وقد نبغ منها –

---

(١) انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م جـ٩، ص: ١٢.

(٢) انظر: د. عبد اللطيف حمزة: القلقشندي في كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل، سلسلة أعلام العرب (١٢) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢م، ص: ٣٨-٣٩.

بالإضافة إلى الليث - أبو العباس أحمد القلقشندي صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. وحينما يتحدث القلقشندى عن محافظة القليوبية فإنه يقول: ((ومن بلادها بلدتنا (قلقشندة) وهي بلدة حَسَنَة المنظر، غزيرة الفواكه، وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير))(٣).

بدأ الليث طلب العلم في قريته بحفظ القرآن الكريم، ثم رحل إلى الفسطاط، فسمع العلم من صغره، ورأى كثيراً من العلماء وجلس إليهم، وتلقى عنهم الفقه واللغة وعلوم القرآن. ثم ارتحل إلى مكة وهو في العشرين من عمره سنة ثلاث عشرة ومائة هجرية، فسمع من علماء الحجاز، وتعلم من التابعين ومن تابعي التابعين. عن سعيد بن أبى مريم قال: قال الليث: ((حججتُ سنة ثلاث عشرة - يعنى ومائة - وأنا ابن عشرين سنة))(٤).

وقال أبو نعيم: ((أَسْند الليثُ عن عِدةٍ مِن كبار التابعين: عن عطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيْكة، ونافع مولى ابن عمر، وقيل: إنه أدرك نَيِّفا وخمسين رجلا من التابعين، وأدرك مِنْ تابعي التابعين وَمَنْ دونهم مائة وخمسين نفسًا))(٥).

ومن أهم شيوخ الليث الذين كان لهم دور كبير في حياته وتكوينه العلمي والثقافي الإمام مالك، وعطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، ونافع، وابن شهاب الزهري، وهشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي، ويزيد بن أبى حبيب، وغيرهم(٦).

ولا شك أن هؤلاء وغيرهم من الشيوخ والعلماء الذين درس عليهم الليث كان لهم أثَرٌ كبير في شخصيته وعلمه، فقد اقتبس من علمهم، واستفاد من فضلهم وأخلاقهم، وتعلم من ورعهم وزهدهم.

ولما عاد الليثٍ إلى مصر - وقد علا ذكره - وجلس للفتوى حتى استقل بها في زمانه، وعظمه أهل مصر، وأدرك كثيرٌ من العلماء والمتعلمين فضله، فأقبلوا عليه، وكانت له حلقة كبيرة في جامع الفسطاط: فكان التلاميذ يجتمعون حوله ويستمعون إليه؛ ليأخذوا عنه، ويستفيدوا من علمه، ورحل

---

(٣) أحمد بن علي الفزاري القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، جـ٣ ص: ٤٥٨.

(٤) أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د. بشار عواد معروف: مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٠ه ١٩٨٠، جـ ٢٤ ص: ٢٦٥.

(٥) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني: حلية الأولياء - دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٩هـ، جـ٧ ص: ٣٢٤.

(٦) انظر: أحمد بن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، المطبعة الأميرية ببولاق -مصر، ١٣٠١ه، ص: ٤، ٥. وأبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة-بيروت، طـ ٢، ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م، جـ ٨ ص: ١٤٥. وأبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م، جـ ٥٠ ص: ٣٥٧. وأبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال، مرجع سابق، جـ ٢٤ ص: ٢٦٩.

الليث إلى بغداد سنة إحدى وستين ومائة هجرية. يقول الخطيب البغدادي: ((خرج الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة، وخرج في شوال، وشهد الأضحى ببغداد))(٧).

ولما قدم بغداد حدَّث بها، وروى عنه من أهلها حجين بن المثنى، ومنصور بن سلمة، ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، ويحيى بن إسحاق البلخي، وشبابه بن سوار، وموسى بن داود، وجماعة من البصريين.

وأورد الحافظ المزي في "تهذيب الكمال" أسماء التلاميذ والرواة الذين تلقوا العلم عن الليث بن سعد، وبلغ عددُهم فيما ذكر سبعين راويًا. ومن هؤلاء: عبد الله بن وهب، وعبد الله بن عبد الحكم، وعبد الله بن صالح الجهني المصري(٨).

• مصنفات الليث:

لم يهتم الليث بن سعد بتأليف المصنفات، فلم يصل لأيدينا سوى شذرات مما نُقل من علمه مثل كتاب «عشرة أحاديث من الجزء المنتقى الأول والثاني من حديث الليث» وجزء فيه مجلس من فوائد الليث بن سعد.

يقول البغدادي: ((من تصانيف الليث كتاب في التاريخ، وكتاب المسائل في الفقه))(٩).

• مجالس الليث:

كان الليث متواضعًا كأشد ما يكون التواضع، يجلس علي باب داره ليوزع الهبات والصدقات، ويجلس للناس يعلمهم، ويجلس لأصحاب الحاجات فيقضي حوائجهم، ويصغي للعظات والتذكير، ولا يتكبر على موعظة، ولا يري في نفسه أنه أفضل من غيره.

وكان له في كل يوم أربعة مجالس: أما أولها، فيجلس للوالي يستشيره في نوائبه وحوائجه، فكان الليث إن أنكر من القاضي أو الوالي أمرًا كتب إلى الخليفة فيأتي أمر العزل، والثاني يجلس لأصحاب الحديث، والثالث مجلس عام للمسائل الفقهية يُفتي السائلين، والرابع مجلس لحوائج للناس ممن يسألونه المال فلا يرد أحدًا مهما كبرت حاجته أو صغرت(١٠).

---

(٧) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، جـ٤ ص: ١٢٩.

(٨) انظر: أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مرجع سابق، جـ ١٠ ص: ٤٠٥- ٤١٦. وجـ ٢٤ ص: ٢٥٥- ٢٧٨. وعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م جـ ١ ص ٣٠٣.

(٩) إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى – بغداد ١٩٥٥، ص: ٨٤٢. أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م ص: ٢٤٨.

(١٠) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٠. وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤ ص: ١٣١.

• حرص الليث على تطبيق السنة:

كان الليث حريصًا على رواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإحياء سنته، ومما يحسب في ميزان الليث دروسه التي ألقاها في فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه، في وقت كانت الدولة العباسية قد أشعلت النقمة على الأمويين، فكانوا ينتقصون من أمر عثمان رضي الله عنه، فأخذ الليث يُحَدِّثهم بفضائل عثمان حتى أحبوه.

قال عثمان بن صالح: ((كان أهل مصر ينتقصون من عثمان، حتى جاء الليث بن سعد، فحدَّثهم بفضائل عثمان، فكفوا عن ذلك))(١١).

• مصادر دخله وإنفاقه:

كان الليث صاحب ضياع كثيرة وأموال وفيرة، ولقد بسط الله له في الرزق، وكان له قرية بمصر يقال لها الفرما يُحْمَل إليه من خراجها، فيجعل ذلك صُرَرًا، ويجلس على باب داره، ويعطي صرة لهذا وصرة لهذا حتى لا يَدَع إلا اليسير، وكان إلى جانب ذلك يعمل بالتجارة. وكان له عطاء من الخليفة هارون الرشيد في نظير إدارة إقطاعياته في مصر، فكان دخله يتراوح بين عشرين ألفا ومائة ألف دينار(١٢).

ولم يغتر الليث بن سعد بالغنى والثراء الواسع والنعمة التي بسطها الله تعالى له، ولم يَسْعَ إلى اكتناز المال؛ بل كان آية في الجود والكرم، ومثالا حيًّا للغني الشاكر الذي ينفق ويتصدق بلا حساب، والعجيب – كما تجمع الروايات وتنقل المراجع - أنه ما وجبت عليه زكاة قط لأنه كان يتصدق بماله كله وينفق ما تقع عليه يده، ولا يدخر من ماله شيئًا، فإذا حال عليه الحول لا تجب عليه الزكاة فى ماله، بل قد يكون – أحيانًا كثيرة - مدينًا لكثرة إنفاقه وجوده.

قال محمد بن رمح: ((كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار، ما أوجب الله عليه درهماً قط بزكاة))(١٣).

وكان الليث لا يكف عن استقبال الضيوف، وكان من عادته ألا يرد سائلا قط، فعن عبد الله بن صالح قال: صحبت الليث بن سعد عشرين سنة، فكان لا يتغدى أو يتعشى وحده إلا مع الناس. وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر(١٤). وذكر ابن

---

(١١) وأبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مرجع سابق، جـ ٢٤ ص: ٢٧١. وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤ ص: ١٣٠.

(١٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٢

(١٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٢. وابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٦

(١٤) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨، ص: ١٥٠. وابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٦.

خلكان أن الليث كان يصنع لأصحابه الفالوذج، ويضع فيه الدنانير ليحصل من أكل كثيراً على أكثر ممن أكل قليلا(١٥).

وكانت له مع كل صلاة صدقة يخرجها يشفع بها صلاته، قال قتيبة: كان الليث يركب في جميع الصلوات إلى الجامع، ويتصدق كل يوم على ثلاث مائة مسكين(١٦).

وما أكثر ما أوردت المراجع من قصص وحكايات ومآثر عن الليث بن سعد تحكي عن جوده وكرمه وإنفاقه في سبيل الله (١٧).

• مع الإمام مالك بن أنس:

أما كرم الليث وسخاؤه مع الإمام مالك بن أنس فَحَدِّث عنه ولا حرج – لقد اعتبر الليث نفسه ومالكا شخصًا واحدًا، وكان يَعْرف أن مالكا سخيٌّ، ويقصده الناس من مختلف الجهات، وله تلاميذ يلزمون حَلقته ويعولهم، فهو في حاجة دائمة إلى المال، فكان الليث يمده بالمال وغيره مما يحتاج إليه.

قال ابن وهب: ((كان الليث بن سعد يصل مالك بن أنس بمائة دينار في كل سنة، فكتب إليه مالك: إن عليَّ دينًا، فبعث إليه بخمسمائة دينار))(١٨).

وكان الليث لا يباهي بذلك، بل كان يحب نفقة السر، ويكتم ما يعطيه ما وسعه الكتمان، ولعل مالكا رحمه الله هو الذي كان يفشي أمر ما يصله من الليث اعترافا بفضله وشكرًا له.

قال أبو صالح كاتب الليث: ((كنا على باب مالك بن أنس، فامتنع علينا (أي احتجب) فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا.

قال: فسمع مالك كلامنا، فأمر بإدخالنا عليه. فقال لنا: مَنْ صاحبكم ؟ قلنا: الليث بن سعد.

قال: تشبهوني برجل كتبتُ إليه في قليل عُصْفر نصبغ به ثياب صبياننا، فأنفذ إلينا منه ما صبغنا ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف دينار))(١٩).

وحج الليث مرة فأهدى له مالك طبقاً فيه رطب، فرد الليث الطبق وفيه ألف دينار، قال شعيب: ((خرجت مع أبي حاجًّا فقدم المدينة، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق رطب، فجعل على الطبق ألف دينار ورده إليه))(٢٠).

---

(١٥) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤، ص: ١٢٧.

(١٦) انظر: ابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية، مرجع سابق، ص:٦. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٨.

(١٧) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤، ص: ١٢٧ والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٤٩. وابن الجوزي: المنتظم، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ١٤.

(١٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤ ص: ١٣٠ . وابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٦ والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٤٨

(١٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٧. ابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٥

ورعه وزهده وخشيته:

ومع أنَّه كان يُنافس الريح كَرَمًا وسخاءً، كان لا يتناول من مَوائده إلا الفتات، وهذا مُنتهى الزهد، إذ لا يمتنع عن اللذائذ وأنواع الترف ثم يقدمها هدية للناس إلا من بلغ من الزهد غايته، ومن التقشف نهايته. وحقا كان الليث زاهداً في الدنيا معرضًا عنها، وكانت الدنيا في يده لا في قلبه، فتقلل منها، وكفاه القليل من الحلال الطيب، وجمع مع هذا الزهد ورعًا وخشية لله، فكان يبتعد عن كل ما فيه شبهة. وهذه سمات الصالحين.

وكذلك كان الليث يوسع على غيره وعلى أهله ويضيق على نفسه، وهو لون من جهاد النفس لا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال.

• رفضه للولاية ولقائه بالخلفاء:

عاش الليث بن سعد واحدًا وثمانين عامًا، فقد ولد في سنة ٩٤ هـ وتوفي سنة ١٧٥هـ، وتجمع هذه الفترة الزمنية بين نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، وبهذا يكون الليث قد عاصر كثيرًا من خلفاء الدولة الأموية والعباسية، ولم تُشِرْ مصادر التاريخ إلى أن الليث بن سعد لقِيَ أحدًا من خلفاء بني أمية، وربما كان السبب في ذلك انشغاله في طلب العلم الذي قضى فيه صدر شبابه، كما أن الجزء الأخير من تاريخ الخلافة الأموية كان حافلا بالصراع الذي لم يتح لأحد فرصة التوجه للقاء الخليفة. وفي عهد الخلفاء العباسين الثلاثة أبو جعفر المنصور، وولده المهدى، وهارون الرشيد - توجَّه الليث بن سعد إلى العراق أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يقابل الخليفة. وكان الخلفاء يحترمونه ويجلونه لأنهم أدركوا أنه ليس من أصحاب المطامع، ولا من طلاب الشهرة، ولا ممن يبتغي الدنيا(٢١).

• وفاته:

توفى الليث – كما يرى جمهور المؤرخين - سنة خمس وسبعين ومائة من الهجرة، بعد ما بلغ إحدى وثمانين سنة، وذلك في يوم الخميس ودفن في يوم الجمعة في النصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة هجرية، وصلى عليه الوالي موسى بن عيسى. يقول ابن كثير فى أحداث سنة ١٧٥ هـ: ((وفيها توفى الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم،... وكانت وفاته فى شعبان من هذه السنة))(٢٢).

وقد حزن الناس جميعًا في مصر لوفاة الليث وفقدانهم رجلا كان ملء أسماعهم وأبصارهم.

---

(٢٠) ابن حجر: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٦. وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ ٩، ص: ١٣، ١٤. والذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٥٠.

(٢١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مرجع سابق، جـ ٤، ص: ١٣٢-١٣٤ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ١٤٦.

(٢٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيريدار، إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ه ١٩٨٨م، ط إحياء التراث جـ ١٠ص: ١٧٧.

قال خالد بن عبد السلام الصدفي: ((جالست الليث بن سعد، وشهدت جنازته مع أبي، فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن، ويُعزِّى بعضهم بعضًا، فقلت لأبي: يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة ؟ فقال لي: يا بني، كان عالما كريمًا حَسَن العقل كثير الإفضال، يا بني، لا ترى مثله أبدًا))(٢٣).

وهذه كلمات قليلة ولكنها تحمل معاني جليلة، أنها تلخص حياة الليث أتم تلخيص، وتشهد له بالعلم والكرم وحسن العقل وكثرة الأفضال. وحقا كان الليث كذلك، وقد رأينا في عرضنا لسيرته مدى صدق هذه الكلمات.

ثمانون عامًا عاشها الليث، وقد حوى علمًا يتوجه عمل، وزهدًا يزينه تقوى، ومالا يزيده صدقة، وعقلا يثبته الإيمان بالله ورسوله.

• ثناء العلماء عليه:

استحوذ الليث على حب الناس، وأخذ قسطًا كبيرًا من ثناء العلماء عليه ومدحهم له، ومَنْ عرفه فقد عرف قدْرَة. وستظل الكلمات التي سجلها التاريخ من أقوال العلماء في حقه نبراسًا يضيء سيرة هذا العالِم الجليل. ونكتفي منها بشهادة الإمام الشافعي- رحمه الله – حيث وصف الليث بأنه أفقه فقهاء زمانه، فقال: ((كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به)). وقال حرملة بن يحيى: ((سمعت الشافعي يقول: الليث أتبع للأثر من مالك بن أنس))(٢٤).

وقال يونس بن عبد الأعلى: ((سمعت الشافعي يقول: ما فاتني أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث بن سعد وابن أبى ذئب))(٢٥).

• عدم انتشار مذهب الليث بعد وفاته:

لليث منزلة فقهية لا تقل عن غيره من أصحاب المذاهب التي انتشرت وذاعت، فهو من أعظم فقهاء القرن الثاني الهجري، وكان له تلاميذ كثيرون، فكان يهبهم من ماله وعلمه، ويسعهم بخلقه وفضله وأدبه، وكان له مذهب خاص به ذاع في حياته، ومع هذا لم يجد من أصحابه من يُدَوِّن المسائل عنه، ولم يجد من تلاميذه ومريديه من كلف نفسه التعريف به بعد وفاته وتسجيل العِلم الذي أخذه عنه في كتب يقرؤها الناس، كما أن الليث لم يُصَنِّف شيئًا من الكتب، فلم يعد لدى الناس صورة جامعة لمذهبه، حيث تفرَّقت آراؤه في بطون الكتب المختلفة من كتب التفسير والحديث والفقه والطبقات.

يقول ابن حجر عن الليث: ((لكنه ما صنَّف شيئًا من الكتب ولا دوَّن أصحابه المسائل عنه، ولذلك قال الشافعي: " ضَيَّعَه أصحابه"))(٢٦).

---

(٢٣) ابن حجر: الرحمة الغيثية ، مرجع سابق، ص: ٩ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق،جـ٨ ص: ١٦٢.

(٢٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق،جـ٨ ص: ١٥٦.

(٢٥) ابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص: ٨

يعني لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك وغيره، وإن كان بعضهم قد جمع منها شيئًا. ومن المعلوم أن الإمام مالكا قد دوَّن فقهه بنفسه، وكان هو العالِم المبرز لمدينة الرسول، وقد تعرَّض لتعذيب شديد من السلطة الحاكمة؛ مما جعل طلاب العلم من شتى أمصار العالم الإسلامي يقصدونه.

ومن ثم يمكن القول بأن ضياع مذهب الليث كان سببه انصراف تلاميذه عن تدوين مذهبه لاهتمامهم بمذهب مالك، مع اعترافهم في الوقت نفسه بفضل الليث وعلمه الغزير.

• المبحث الثاني: مفهوم الحوار والمناظرة وأهميتهما والهدف منهما

هذا المبحث يُعنَى بتوضيح مفهوم اصطلاحي الحوار والمناظرة مع الإشارة إلى أهميتهما والهدف منهما، وذلك من خلال النقاط التالية:

- أولا: مفهوم الحوار لغة واصطلاحًا
- ثانيًا: مفهوم المناظرة لغة واصطلاحًا
- ثالثًا: أهمية الحوار والمناظرة والهدف منهما

• أولاً: مفهوم الحوار لغة واصطلاحًا

• مفهوم الحوار لغة:

الحوارُ مصدر الفعل حاور، وهو – كما ورد في معاجم اللغة – اسم مشتق من الحاء والواو والراء، وهذه المادة تدور حول ثلاثة معان: أحدها اللون، فالحور شدة بياض العين في شدة سوادها. والثاني الرجوع والتردد بين شيئين. والمعنى الثالث دوران الشيء.

يقول الخليل بن أحمد: ((الحور: الرجوع إلى الشيء وعنه... والمحاورة: مراجعة الكلام. حاورتُ فلانًا في المنطق، وأحرت إليه جوابًا. وما أحار بكلمة، والاسم: الحوير، تقول: سمعت حَويرَهما وحوارَهما. وفي الحديث: نَعوذُ باللهِ من الحوْر بعدَ الكوْر أي: النقصان بعد الزيادة،... أي: بينا كنت في كوْرِ الزيادة إذا أنت تَحُور راجعًا إلى النقصان))(٢٧).

وقد وردت مادة (حور) في القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿ فقالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]. وفي تفسير هذه الآية يقول القرطبي: ((قوله تعالى: ﴿ فقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ ﴾ أي يراجعه في الكلام ويجاوبه، والمحاورة: المجاوبة. والتحاور التجاوب. ويقال: كلمْتُهُ فما أحار إليَّ جوابًا، وما رجع إليَّ حَويرًا ولا حَويرَة ولا مَحُورَة ولا حِوَارًا، أيْ مَا رَدَّ جَوَابًا))(٢٨).

---

(٢٦) المرجع السابق، ص: ٩

(٢٧) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال- القاهرة، جـ ٣ ص: ٢٨٧.

(٢٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، جـ ١٠ ص: ٤٠٣.

ويقول الأصفهاني في مفردات غريب القرآن: ((والمحاورة والحوار: المُرَادّة في الكلام، ومنه التحاور، قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة: ١]، وكلمتُه فما رجع إليَّ حَوَارًا، أو حَوِيرًا أو مَحُورَة أي: جوابًا))(٢٩).

وقد أوردت بعض المعاجم تعريف المحاورة باعتبارها مرادفة للحوار، فالمحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، يقول ابن منظور: ((وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره والمحُورَة من المحاورة مصدر كالمشُورَةِ من المشاوَرَة... وإنه لضعيف الحوْر أي المحاوة))(٣٠). ويقول ابن مالك: ((الحوار والحوير: كَلام المتحاورين، وهما اللذان يحاور كل واحد منهما الآخر: أي يراجعه القول))(٣١).

ومما سبق يتبين أن مادة الحوار تعني الرجوع والتردد بين شيئين، والتحاور من التجاوب والمحاورة، وحاورته، أي: راجعته في الكلام، وما أحار جوابًا: أي ما رجع. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. والحوار هو مراجعة الكلام وتداوله، وهو ما يكون عادة بين شخصين أو بالأحرى بين طرفين أو أكثر.

• مفهوم الحوار اصطلاحًا:

التعريف الاصطلاحي للحوار لا يخرج عن المعاني اللغوية السابقة، بل يؤكدها ويضيف إليها بعض المعاني والقيم الأخلاقية التي ينبغي توفرها في الحوار.

فالحوار اصطلاحًا كما ورد في معجم اللغة العربية المعاصر هو ((حديث يجري بين شخصين أو أكثر))(٣٢).

وهو: ((أسلوب يجري بين طرفين، يسوق كل منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به، ويراجع الطرف الآخر في منطقه وفكره قاصدًا بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره))(٣٣).

وهو ((تبادل المعلومات والأفكار والآراء سواء أكانت تبادلًا رسميًا أم غير رسمي، مكتوبًا أم شفويًا. وينعقد الحوار بمجرد التعرف على وجهات نظر

---

(٢٩) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم- دمشق، الدار الشامية – بيروت، ١٤١٢هـ، ص: ٢٦٢.

(٣٠) أبو الفضل محمد بن مكرم بن على ابن منظور الإفريقى: لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ جـ ٤ ص: ٢١٨. وقارن: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٤، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م، جـ ٢ ص: ٦٣٨-٦٤٠.

(٣١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي: إكمال الأعلام بتثليث الكلام، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م جـ ١ ص: ١٦٨.

(٣٢) د. أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م، جـ١ ص: ٥٧٩.

(٣٣) عبد الستار الهيتي: الحوار الذات والآخر، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، العدد ٩٩، السنة الرابعة والعشرون، مارس ٢٠٠٤م، ص:٣٩.

الآخرين وتأملها وتقويمها والتعليق عليها. ومن هذا الفهم يمكن أن يطلق الحوار على تلاقح الثقافات بين بعضها الآخر وما يحصل من جراء ذلك من تلاقي المتحاورين وتصويب بعضهم لبعض وتأثير بعضهم في بعض))(٣٤).

فالحوار - إذن- هو مراجعة الكلام ومناقشة بين طرفين مختلفين أو أكثر، دون وجود خصومة بينهم بالضرورة، مع تقديم الحجج والبراهين لإقناع أحدهما برأي الآخر، أو لتقريب وجهات النظر، ويُقصد به تصحيح كلام، وإظهار حجّةٍ، وإثبات حق، ودفع شبهةٍ، وردُّ فاسد من القول والرأي. وهذه المناقشة تكون حول موضوعٍ محدد، ولكل طرف وجهة نظر خاصة به، وهدف الجميع هو طلب الحق والوصول إلى الحقيقة، بالأسلوب الحسن وبعيداً عن الخصومة أو التعصب، وبطريقة تعتمد على أصول وقواعد وضعها أهل هذا العلم. وبضوابط أخلاقية يفترض توفرها في الحوار ليكون مثمراً ومجدياً.

• ثانياً: مفهوم المناظرة لغةً واصطلاحًا

• المعنى اللغوي للمناظرة:

المناظرة مفاعلة من نظر، وهي مصدر ناظر، وهذه الصيغة تدل على المشاركة بين اثنين أو أكثر. والمعنى اللغوي لمادة النون والظاء والراء يدور حول عدة معان منها: الإبصار وهو النظر الحسي، أو التأمل والفكر وهو النظر المعنوي، أو الانتظار، أو النظير وهو الشبيه والمثيل، أو المقابلة.

يقول ابن منظور: ((والتناظر التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره، وناظره من المناظرة، والنظير المثل، وقيل المثل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء، ونظير الشيء مثله... ويقال ناظرتُ فلانًا أي صرتُ نظيراً له في المخاطبة، وناظرتُ فلانًا بفلان أي جعلته نظيراً له))(٣٥).

وتناظر القوم في الأمر، أي: تجادلوا وتراوضوا، ((والمناظرة: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه. وهو مجاز. والمناظرة: المباحثة والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته. والنظر: البحث وهو أعم من القياس))(٣٦).

فالمناظرة في اللغة هي مقابلة بين اثنين كل منهما يفكر ويبحث في أمرٍ ما.

---

(٣٤) د. أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، بحث للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص: ٧.

(٣٥) ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، جـ ٥ ص: ٢٢٠.

(٣٦) أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م، جـ ١٤ ص: ٢٦٥. وقارن: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق مرتضى الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، جـ ١٤ ص: ٢٥٤. وابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، جـ ٥ ص: ٢١٧.

• المعنى الاصطلاحي للمناظرة:

أما في الاصطلاح فقد عرَّف الآمدي المناظرة بأنها ((تردد الكلام بين شخصين يقصد كل منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه))(٣٧).

وعرَّفها الجرجاني بأنها ((النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب))(٣٨).

وجاء تعريف المناظرة في معجم اللغة العربية المعاصرة بأنها: ((جدال وحوار ونقاش علميّ، وتبادل في وجهات النَّظر المختلفة يقوم فيه فريقان خصْمان بالدِّفاع عن قضيّة ما أو مهاجمتها))(٣٩)

فالمناظرة حوار بين شخصين أو فريقين حول موضوع معين، ويسعى كل طرف إلى الدفاع عن رأيه باستخدام الأدلة والبراهين وشتى الوسائل العلمية والمنطقية وتفنيد رأي الطرف الآخر، مع توفر الرغبة الصادقة في معرفة الحق والانصياع له.

وفي تعريف المناظرة يقول محمد الأمين الشنقيطي: ((المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق))(٤٠).

وإذا لم تكن المناظرة لإظهار الحق كانت مراءً وجدالا وخصومه ووبالا على صاحبها، يقول ابن عبد البر تحت باب ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء: ((الآثار كلها في هذا الباب المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم إنما وردت في النهي عن الجدال والمراء في القرآن(٤١).... وأما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه فقد تنازع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من ذلك، وهذا يبين لك أن المراء الذي هو الكفر هو الجحود والشك... وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول للحاجة إلى ذلك))(٤٢).

فالعلماء من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم كانوا يتنازعون في الأمر ويتناظرون في المسألة بروح المشاورة والمناصحة، وربما يختلفون في المسألة، مع بقاء الألفة والعصمة والأخوة.

---

(٣٧) الآمدي: شرح عبد الوهاب بن الحسين الآمدي على الرسالة الوالدية، وهي متن الآداب للعلامة المرعشي، في آداب البحث والمناظرة، تحقيق: عبد الحميد هاشم العيساوي، دار النور- عمان، ٢٠١٤هـ، ص: ٥٧.

(٣٨) علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني: التعريفات: مرجع سابق، ص: ٢٣١، ٢٣٢. وقارن: د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٧٣م، جـ٢ ص:٣٤١.

(٣٩) د. أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، جـ٣ ص:٢٢٣٢.

(٤٠) محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي: آداب البحث والمناظرة، تحقيق سعود بن عبد العزيز العريفي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد- مكة، مجمع الفقه الإسلامي- جدة، ١٤٢٦هـ، جـ ٢ ص ١٣٩.

(٤١) والمعنى أن يتمارى اثنان في آية يجحدها أحدهما ويدفعها ويصير فيها إلى الشك؛ فذلك هو المراء الذي هو الكفر. انظر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م، جـ٢ ص: ٩٢٨.

(٤٢) المرجع السابق، جـ٢ ص: ٩٢٨، ٩٢٩.

• ثالثًا: أهمية الحوار والمناظرة والهدف منهما

للحوار أهمية كبيرة ودور مهم في التواصل والتفاهم مع الآخرين، فهو وسيلة للتعارف والتآلف، به تُفضُّ المنازعات، وتُحَلُّ الخلافات، وتُحقن الدماء.

والحوار من أهم أساليب التربية الإسلامية وأفضلها؛ ذلك لأنه يترك المجال للأطراف المتحاورة لإبداء وجهات النظر وتبادل الآراء وتلاقح الأفكار، مما ينتج عنه تصحيح المفاهيم وحل المشكلات وتجاوز العقبات، ومن ثم تسود المحبة والألفة بين أفراد المجتمع(٤٣).

ومما يدل على أهميته ما ورد في القرآن الكريم من الدعوة إلى التحاور مع الآخرين حوارًا رفيعًا مهذبًا؛ فقال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فهو فرصة كبيرة لدعوة الناس إلى الإسلام.

بل إنه منهج للدعوة والإصلاح، اتبعه الأنبياءِ عليهم السلام في دعوة أقوامهم إلى الله تعالى لإقامة الحجج ودفع الشبهات والافتراءات، وفي رد الشاردين والجاهلين والغافلين إلى حياض الإسلام، وهو ترياق فعال لمعالجة داء الإرهاب، فبه تنفتح مغاليق الشبهات، وبه تُدرَأ الكثير من مكنونات النفس وتراكمات العقائد الضالة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، [الأنعام: ١٠٨] ((فمجرد الغلظة في الحوار واستخدام المفردات الجافة الفظة غير مرغوب، ناهيك عن سباب الناس وإيذائهم وتحقيرهم وازدرائهم وغير ذلك من الممارسات الناجمة أساسًا عن عدم الاعتراف بالآخرين وعدم الإيمان بجدوى الحوار نفسه، وهؤلاء لا ينبغي لهم أن يتصدوا للحوار أو لا يمكن أن يحققوا منه أي نتائج إيجابية))(٤٤). ،

وتتضح أهمية الحوار عندما ننظر إلى واقع الناس في مختلف الأعصار والأمصار، وما يتصفون به من الاختلاف والتعدد، والذى هو سُنَّة من سنن الله في الكون. فلكل شيء في هذا الخلق طبيعته وخصائصه وصفاته، وطبيعة الوجود في الكون أساسها التّنوّع والتّعدّد، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومُدركاتهم ومعارفهم وعقولهم، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

والاعتراف بوقوع هذا الاختلاف وعدم إمكانية جمع الناس على دين واحد لا يعني تسويغ الخلاف، لكنه يفرض على أهل الحق أن يتصدوا لهداية من قدروا على هدايته، فالإسلام يعترف بوجود الاختلاف، ويطلب من الدعاة ورثة الأنبياء القيام بواجب البلاغ في الدنيا واستفراغ الوسع في الإرشاد والنصح للعالمين.

---

(٤٣) انظر: عدنان بن سليمان بن مسعد الجابري: آداب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير، مرجع سابق، ص٥.

(٤٤) أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، مرجع سابق، ص: ٢٠.

((إن منهج الجدل والحوار الإسلامي قادر على احتواء جميع الصراعات والاختلافات، فقد احتوى هذا المنهج الصراعات مع الأديان الأخرى وانتصر واتسع فكيف لا يتحمل الحوار بين المسلمين؟ إن الفكر الديني المستنير هو ضرورة مهمة لأي بناء حضاري، ولن يكون هنالك فكر ديني مستنير إلا في ظل الحوار الإسلامي))(٤٥).

- **هدف الحوار:**

لا يقصد من الحوار مجابهة الخصم وإفحامه ومحاولة الظهور عليه وتعجيزه عن الرد. وإنما المقصود والغاية منه إقامة الحجة، ودفعُ الشبهة وبيان الفاسد من الأقوال. فهو تعاون بين المتناظرين على معرفة الحقيقة والتَّوصُّل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق. يقول الحافظ الذهبي: ((إنما وضعت المناظرة لكشف الحقِّ، وإفادةِ العالِم الأذكى العلمَ لمن دونه، وتنبيهِ الأغفلَ الأضعفَ))(٤٦). هذه هي الغاية الأصلية، وهي جليَّة بيِّنة، وثَمَّت غايات وأهداف أخرى منها:

- تشييد جسر للتواصل السلمي البناء وسد الطريق أمام المواجهات والمصادمات.
- البحث والتنقيب من أجل الاستقصاء والاستقراء في تنويع الرُّؤى والتصورات المتاحة، من أجل الوصول إلى نتائج أفضل.
- التعرُّف على وجهات نظر الطرف الآخر وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار.
- العمل على استكشاف ما عند المحاور من معلومات غير صحيحة ومما في وجهات نظره أو مواقفه من أخطاء والعمل على تداركها وإصلاحها.
- العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه -كليًّا أو جزئيًّا- في القضايا التي هي موضوع الحوار ليتقبلها ويعمل على تبنيها بعد اقتناعه بها.
- تعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا.
- تقريب وجهات النظر، وتضييق هوة الخلاف، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف.
- كشف الشبهات والرد على الأباطيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.

---

(٤٥) عمر بن عبد الله كامل: آداب الحوار وقواعد الاختلاف، بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، ص: ٥٣

(٤٦) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين الزرقاني المالكي: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، جـ٧ ص: ٤٧٠. وقارن: زين الدين محمد عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٣٥٦ ه، جـ١ ص: ٢١٠.

- الدعوة، فالحوار الهادئ مفتاح للقلوب وطريق إلى النفوس(٤٧).

والجدير بالذكر أن المؤلفين – قديمًا وحديثًا- اعتنوا بأدب الحوار والمناظرة، ووضعوا له أصوله وقواعده، وهذه القواعد والضوابط هي العاصم للمتحاورين من الغلو والخطأ إن كان الحق هو الرائد والمطلوب، وكان المحاور مؤهلا للانخراط في الحوار فإنه يجني ثماره وينفع نفسه ودينه.

وحتى يتحقق ذلك فلا ينبغي أن يتصدى للحوار إلا من التزم بمعاييره وعرف فوائده وآدابه، وتأهل له بالعلم النافع والاستقامة على المنهج، فضلا عن الإخلاص والتجرد والتلطف بالآخر والرفق به والإشفاق عليه.

وقد وضَّح ابن خلدون معالم هذا العلم ومسوغاته وغاياته حين قال: ((لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعًا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، ... ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه...))(٤٨).

• المبحث الثالث: آداب الحوار والمناظرة في رسالة الليث بن سعد إلى أنس بن مالك

مرات عديدة التقى فيها الإمام الليث بن سعد عالم أهل مصر بالإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وعالم أهل الحجاز، وكان الإمام الليث يحج ويذهب إلى المدينة لزيارة مسجد النبي صلي الله عليه وسلم، فيلتقي في رحاب المسجد النبوي بالإمام مالك الذي كان يُلقِي دروسه في المسجد، وكان يبادله المحبة في الله، ويقول: ((إني لأدعو لمالك في صلاتي))، وذكر مِنْ حاجة الناس إليه في الفتيا(٤٩).

وكان مالك يستضيف الليث في بيته ويرحب به، ويُجِلُّه ويُقَدِّره، وكان إذا نقل عن الليث قال: ((حدثني مَنْ أرضى مِن أهل العلم))(٥٠).

ولم يرد أنه كانت هناك مكاتبة متبادلة مأثورة وباقية بين مالك وأحد من الفقهاء سوى الليث، فقد كانت بينهما مناقشات ورسائل، تبادلا فيها النصح، وامتلأت بروح المحبة والأخوة، ومن ذلك ما أورده صاحب النجوم

---

(٤٧) انظر: أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، مرجع سابق، ص: ١٥، ١٦. وعمر بن عبد الله كامل آداب الحوار وقواعد الاختلاف، مرجع سابق، ص: ٤. ود. أحمد إدريس الطعان: منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية، كلية الشريعة- سوريا، ص: ٥.

(٤٨) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: خليل شحادة: دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، جـ١ ص: ٥٧٩.

(٤٩) القاضي عياض بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، جـ١ ص: ١٧٠.

(٥٠) ابن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، مرجع سابق، ص:٨

الزاهرة من رسالة كتبها مالك إلى الليث ينصحه فيها من الركون إلى الأكل المترف والملبس الناعم واللهو في الأسواق عن العلم، وقال مالك فيها: ((بلغني أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرقاق، وتمشي في الأسواق))، فكتب إليه الليث بن سعد: ﴿ قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ﴾ الآية [سورة الأعراف، من الآية : ٣٢] (٥١).

ومن تلك الرسائل الخالدة الماتعة والمفيدة رسالة الإمام الليث إلى الإمام مالك والتي بعثها ردًّا على رسالة أرسلها له مالك، حينما بلغه أن الليث يفتي في بعض المسائل بمصر بما يخالف ما عليه العمل بالمدينة، فكتب مالك إلى الليث رسالة.

وقد ورد عليه الليث في رسالة طويلة، بدأها بالسلام والتحية، وأثنى على مالك فيها، وأكد على موافقته فيما ذهب إليه من مكانة المدينة ومنزلتها وفضلها، ثم تحدَّث عن رأيه فى الموضوع الأساسى، وبيَّن له تفرق الصحابة في الأمصار، وأنهم اختلفوا في الفتيا، كما اختلف التابعون ومَنْ بعدَهم، وذكر له كثيرًا من الأمثلة والمسائل الدالة على ذلك مما فيه مخالفة لأهل المدينة. ثم ختم الليث رسالته ختامًا رائعًا فيه سمات المودة والأدب والحب والاحترام.

يقول الشيخ عبد الحليم محمود: ((وكان بين الإمام مالك والإمام الليث مودة واحترام، يُجِلُّ كل منهما الآخر، ويقدره تقديرًا عظيمًا على الرغم من اختلافهما في بعض الأمور، ولقد تبادل مالك والليث رسالتين حفظهما التاريخ من أمتع الرسائل التي تبودلت بين كبار العلماء، فيها تقدير متبادل وحسن بيان للرأي مع الأدب في التعبير وحرص على وضوح الفكرة في أسلوب موجز))(٥٢).

وقد وردت رسالة مالك في: كتاب التاريخ لابن معين، وكتاب المعرفة والتاريخ للفسوي، وترتيب المدارك للقاضي عياض(٥٣).

ووردت رسالة الليث في: كتاب التاريخ لابن معين، وكتاب المعرفة والتاريخ للفسوي، وترتيب المدارك للقاضي عياض، وإعلام الموقعين لابن القيم(٥٤).

---

(٥١) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج٢، ص:٨٢،

(٥٢) د.عبد الحليم محمود: الليث بن سعد إمام أهل مصر، دار المعارف –القاهرة، ص: ٥٣. وانظر: مناع بن خليل القطان: تاريخ التشريع الإسلامي: مكتبة وهبة- القاهرة، ط ٥، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص: ٣٤٩.

(٥٣) انظر: أبو زكريا يحيى بن معين: تاريخ ابن معين (رواية الدوري) تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، ١٣٩٩ ه ١٩٧٩م، جـ ٤ ص: ٤٨٧ – ٤٩٧. والفسوي: المعرفة والتاريخ،، مرجع سابق، جـ ١ ص: ٦٩٥ – ٦٩٧. والقاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مرجع سابق، جـ ١ ص: ٤١ – ٤٣.

(٥٤) انظر: ابن معين: تاريخ ابن معين، مرجع سابق، جـ ٤ ص: ٤٩٨ – ٥٠١. والفسوي: المعرفة والتاريخ،، مرجع سابق، جـ ١ ص: ٦٨٧ – ٦٩٥. والقاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مرجع سابق، جـ ١ ص: ٤٤. ومحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، جـ ٣ ص: ٦٩ – ٧٣.

والذي حمل رسالة الليث بن سعد إلى مالك بن أنس، هو: إبراهيم بن إسحاق قاضي مصر(٥٥).

وسنحاول في هذا البحث - في تحليل رسالة الليث بن سعد إلى مالك بن أنس - الوقوف على الآداب الأخلاقية التي وردت في مراسلات الإمامين الجليلين، ومعرفة ما يجب على المحاور والمناظر أن يراعيها.

ومن الأمانة العلمية أن نبدأ بما كتبه الإمام مالك أولاً، ثم نردفه برد الإمام الليث، مستخلصين – فيما يلي - أهم آداب الحوار والمناظرة بشيء من التفصيل والبيان.

• اللطف وحسن الاستهلال:

بلغ مالك أن الليث يفتي في بعض المسائل بمصر بما يخالف ما عليه العمل بالمدينة، فكتب إليه هذه الرسالة، وافتتحها بمقدمة رائعة كلها وُدٌّ وألفة؛ فألقى عليه تحية الإسلام، وحمد الله تعالى، ثم دعا له مُظهرًا فرحه وانشراح صدره وسروره بما عَلِمَه من صلاح حال الليث داعيًا الله تعالى أن يديم عليه تلك النعمة، يقول مالك: ((بسم الله الرحمن الرحيم . من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه . كتبتُ إليك وأنا ومَنْ قِبَلي من الولدان والأهل على ما تحب، والله محمود، أتانا كتابك، تذكر من حالك ونعمة الله عليك الذي أنا به مسرور، أسأل الله أن يتم عليَّ وعليك صالح ما أنعم علينا وعليك، وأن يجعلنا له شاكرين)).

وقد رد الليث على مالك في رسالة طويلة، افتتحها بمقدمة رائعة – كذلك – وبدأها بالسلام والتحية، وأثنى فيها على مالك، مؤكدًا على سروره بما عَلِمَه من صلاح حال مالك داعيًا الله تعالى أن يديم عليه تلك النعمة، يقول الليث: ((سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابُك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه)).

فهاتان المقدمتان تظهران - بما لا يخفى- المحبة العظيمة والأُخُوَّة العميقة والمودة المتبادلة بين الإمامين العظيمين. ومن يقرؤهما لأول مرة لا يتوقع أن هذه مناظرة علمية وحوار جاد في مسائل مختلف فيها، ولكنه الأدب العالي للحوار والمناظرة.

وكنتُ قد أثبتُ نص الرسالتين في مبحث مستقل في مسودات هذا البحث، ثم وجدتُ أنه سيتم تكرار كثير من فقرات الرسالتين عند التحليل وإبراز آداب الحوار، فاكتفيتُ بما نحتاج مما يتعلق بموضوع البحث.

(٥٥) انظر: أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر: تاريخ دمشق، مرجع سابق، جـ ٣٢ ص: ١٤٢.

• التمهيد قبل الدخول في الموضوع الرئيسي:

وبعد المقدمة التي تفتح القلوب وتشرح الصدور، وما فيها من تلطف ورفق ورحمه واحترام متبادل، وقبل الدخول في صلب موضوع الحوار يأتي هذا المدخل الذي يزيد من الألفة والود.

ويبدو أن الإمام الليث قد وصلت إليه كتب وفتاوى منسوبة إلى الإمام مالك، فأحب أن يتثبت من نسبتها، وأن يستوثق من صحتها، فأرسل إلى مالك في ذلك، فنظر فيها الإمام مالك وراجعها، وأصلح ما قد يكون فيها من أخطاء ناتجة عن النَّسْخ، ثم خَتَمَها بخاتَمه معتمداً ما ورد فيها. يقول مالك: ((وفهمتُ ما ذكرتَ في كتب بعثتَ بها لأعرضها لك، وأبعث بها إليك، وقد فعلتُ ذلك، وغيَّرتُ منها ما غيرتُ؛ حتى صح أمرها على ما يجب، وختمتُ على كل قنداق، (أو غنداق)(٥٦) منها بخاتمي، ونقشه حسبي الله ونعم الوكيل، وكان حبيبًا إليَّ حفظك، وقضاء حاجتك، وأنت لذلك أهل، وصبرت لك نفسي في ساعة لم أكن أعرض فيها لأن أنجح ذلك، فتأتيك مع الذي جاءني بها، حتى دفعتُها إليه، وبلغت من ذلك الذي رأيت أنه يلزمني لك في حقك وحرمتك، وقد نشطني ما استطلعت مما قبلي من ذلك في ابتدائك بالنصيحة لك، ورجوت أن يكون لها عندك موضع، ولم يكن منعني من ذلك قبل اليوم إلا أن يكون رأيي لم يزل فيك جميلا، إلا أنك لم تذاكرني شيئًا من هذا الأمر، ولا تكتب فيه إليَّ)).

لقد راجع الإمام مالك تلك الكتب في جلسة واحدة وفي وقت كان أحوج فيه إلى الراحة، وما دفعه إلى هذا الجهد في مراجعة الأوراق وتصحيحها وختمها بخاتمه وإرسالها مع نفس الرسول الذي جاء بها إلا ما كان في قلبه من محبة للإمام الليث ومكانة وحق له وحرمة حببت إليه المسارعة في قضاء حاجته.

والرائع والجميل من الإمام مالك أنه لا يرى في ذلك مِنَّةً ومعروفًا صنعه للإمام الليث، بل يرى أن الليث أهل لذلك، وأنه يلزمه فعل ذلك بوازع الأخوة والمحبة والنصيحة.

وقد تأثر الليث بذلك كثيراً، وبعث إلى مالك يشكره ويدعو الله له بالخير، يقول الليث: ((وذكرتَ نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك وإقامتك وإياها وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كُتُبٌ انتهت إلينا عنك فأحببتُ أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها. وذكرتَ أنه قد أنشطك ما كتبتُ إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوتَ أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا)).

---

(٥٦) القنداق: صحيفة الحساب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، جـ ١٠ ص: ٣٢٤. (تاج العروس، مرجع سابق، جـ ٢٦ ص: ٣١٧. والغُنداق: سجل إحصاء الأراضي . انظر: رينهارت بيتر آن دُوزي: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سَليم النعَيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، جـ ٧ ص: ٤٣٨.

ونلاحظ في هذه الفقرة حكاية الليث لما فعله مالك، وما هذا إلا اعتراف منه بفضل مالك في إجابة طلبه؛ مما جعل الليث يذكر ما قاله مالك في مراجعة تلك الكتب شاكرًا له صنيعه داعيًا له بالخير.

• البدء بالنقاط المشتركة والاتفاق على معيار للتحاكم:

لا بد أن نزن كل مسألة شرعية خلافية بميزان الشريعة، وأن نعرض ما يقال من الكلام في المطالب الشرعية على كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فإن وافق الكتاب والسُّنة فهو حق يُقبل، وإن خالفها فهو باطل يُرَد. وهذا مبدأ أساسي لا يختلف عليه أحد من الأئمة والعلماء، يقول تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ولهذا كان الأئمة الأربعة – رحمة الله عليهم – ينهون أتباعهم عن تقليدهم في كل شيء، يقول مالك: ((كلُّ أحَدٍ يؤْخَذ مِنْ قوله ويُترك، إلا صاحبَ هذا القبر صلى الله عليه وسلم))(٥٧).

وقد ذكر الإمام مالك في الفقرة التالية من رسالته الأساس الذي يراه مقياسًا لصحيح الآراء، ألا وهو وجوب الأخذ بالكتاب والسنة كقضية مُسَلمة وموطن اتفاق وحد مشترك يتفق عليه الجميع، وجعل من ذلك منطلقا لما أراد أن يؤسس له من حجية عمل أهل المدينة، مبينًا أن عمل أهل المدينة حجة، وذلك لأسباب ذكرها، ولها شأنها الكبير ووجاهتها التي لا تنكر.

يقول مالك: ((واعلم، رحمك الله، أنه بلغني أنك تفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة مَنْ قِبَلَك إليك، واعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨] .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الحلال، وحرم الحرام، إذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين أظهرهم

---

(٥٧) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ٨ ص: ٩٣. وورد الأثر نسبة إلى ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فأورده عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: "مَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُدَعُ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، تحقيق: الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، عمادة شؤون المكتبات – جامعة الملك سعود، الرياض، رقم: ٣٣٩، ص: ١٦٦. وأورده أبو نعيم في الحلية، عَنْ مُجَاهِدٍ، قالَ: « لَيْسَ= =أَحَدٌ إِلا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» مرجع سابق، جـ ٣ ص: ٣٠٠. والطبراني، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رَفَعَهُ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ إِلا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُدَعُ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» انظر: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط ٢، جـ ١١ ص: ٣٣٩.

يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيتبعونه، ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله، واختار له ما عنده - صلى الله عليه وسلم -)).

وقد وافقه الإمام الليث على ذلك، وبدأ بحكاية ما أورده مالك في رسالته موافقا له في أسلوب لطيف، وأنه وقع منه بالموقع الذي يحب مؤكداً مكانة المدينة التي هي مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها نزل القرآن عليه بين ظهري أصحابه وكرهه لشواذ الفتيا وتفضيله لعلماء أهل المدينة.

يقول الليث: ((وأنه بلغك أني أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يحق عليَّ الخوف على نفسي لاعتماد مَنْ قِبَلِي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وقد أصبتَ بالذي كتبتَ به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذاً لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه فكما ذكرتَ)).

وهنا يبدو بوضوح وجلاء أدب عظيم من آداب الحوار وأصول المناظرة، وهو الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها؛ فيبدأ الطرفان بمواضع الاتفاق والنقاط المشتركة بينهما فيما يخص موضوع الحوار، ويجعلانها منطلقا لما بعدها، فبين كل متناظرين مختلفين حدٌّ مشترك من النقاط المتفق عليها والتي يُسَلِّمُ بها الطرفان، والمحاور الناجح هو الذي يظهر مواطن الاتفاق، ويُفضّلُ البدءَ بالأمور المتفق عليها، مما يساعِدُ على تقليل الفجوة، ويوثق الصلة بين الطرفين، ويَجعل الحوارَ هادئًا هادفًا. ((أما إذا كان البدء بذكر مواضع الخلاف وموارد النزاع فإن فرَص التلاقي تقلُّ، وفجوة الخلاف تتسع، كما أنه يغيِّرُ القلوب، ويثيرُ التعصُّب والأهواء، فينبغي البدءُ بالنقاط المشتركة، لتحرير محلِّ النزاع وتحديد نقاط الخلاف))(٥٨).

• الدخول في الموضوع الأساسي [عمل أهل المدينة]:

الموضوع الأساسي لهذه المراسلات هو عمل أهل المدينة، فالإمام مالك يَرُدُّ أخبار الآحاد التي تخالف ما يطلق عليه عمل أهل المدينة. وفي رسالته إلى الليث يؤكد على فضل المدينة وعلمائها وأهمية الأخذ بتعاليمهم والعمل المتوارث فيما بينهم وضرورة اجتناب مخالفة فتاويهم. وفي بداية حديث الإمام مالك عن هذا المبدأ العظيم يقوم بالثناء على الإمام الليث والاعتراف بمنزلته، ويُقدم له الموعظة الحسنة والتذكير بالله تعالى، ثم يبدأ في شرح وجهة نظره، والتي جعلها إحدى أسس مذهبه.

(٥٨) د أحمد محمد الشرقاوي الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، مرجع سابق، ص١٣.

فالإمام مالك يرى أن المدينة هي دار الهجرة، وبها نزل القرآن الكريم، وأقام الرسول وأصحابه، ((وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للوحين، وهذه ميزات ليستِ لغيرهم، وعلى هذا فالحق لا يخرج عما يذهبون إليه؛ فيكون عملهم حُجَّة يُقدَّم على القياس، وعلى خبر الواحد))(٥٩).

وإذا كان مالك يعتمد في فتواه على كتاب الله أولا ثم على السُّنَّة فإنه كان يُقدِّم عمل أهل المدينة على خبر الواحد، ويعتبره حجة مقدمة على القياس وعلى خبر الواحد؛ ((وذلك لاعتقاده أن أهل المدينة توارثوا ما كانوا يعملون به عن سلفهم، وسلفهم توارثوه عن الصحابة، فكان ذلك أثبت عنده من خبر الواحد))(٦٠).

فعمل أهل المدينة عنده أقوى منهما؛ إذ عملهم بمنزلة روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم قد توارثوه عمن سبقهم طبقة عن طبقة؛ فروايتهم أولى بالتقديم والثقة والاطمئنان من رواية فرد عن فرد.

يقول مالك: ((ثم قام مِنْ بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم علم فيه سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك اجتهادهم وحداثة عهدهم، فإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى تُرِك قوله، وعمل بغيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السُّبل، ويتبعون تلك السُّنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولا به، لم أرَ خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يجز لهم من ذلك مثل الذي جاز لهم)).

وقد رد عليه الليث في رسالته، بعدما أظهر موافقته فيما ذهب إليه من مكانة المدينة ومنزلتها وفضلها، ثم تحدَّث عن رأيه في الموضوع الأساسي، وهو حجية عمل أهل المدينة، وبيَّن له أن كثيراً من السابقين الأولين الذين تخرجوا في مدرسة النبوة تفرقوا في الأمصار، وحَمَلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها- وهم يجاهدون- ما تعلموه من كتاب الله وسُنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنهم اختلفوا في الفتوى، كما اختلف التابعون من بعدهم، وذكر له كثيراً من الأمثلة والمسائل الدالة على ذلك مما فيه مخالفة لأهل المدينة.

وقد وافق الشافعيُّ وبعضُ الأئمة الليثَ فيما ذهب إليه من أن كثيراً من السُّنَّة حملها بعض الصحابة معهم إلى الأمصار والبلدان المفتوحة التي رحلوا إليها واستقروا فيها، فليست السُّنَّة كلها محصورة في عمل أهل المدينة، بل بعضها، والكثير منها موجود في غيرها، وعلى ذلك إذا صح الحديث عند هؤلاء

(٥٩) انظر: مناع بن خليل القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبة، ط ٥، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص: ٣٥٣.

(٦٠)عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع، مطبعة المدني – مصر، ص: ٢٥٧..

أخذوا به سواء أكان موافقًا لعمل أهل المدينة أم كان مخالفًا له، على عكس رأي مالك في هذا.

يقول الدكتور محمد علي السايس: ((وقد نازعه في ذلك أكثر فقهاء الأمصار استنادًا على أن علم السُّنة لم يكن مقصورًا على من استقر بالمدينة نظرًا إلى أن كثيرًا من الصحابة نزح بما معه من السَّنة إلى الأمصار الأخرى، ثم إنهم ليسوا في محل العصمة حتى يكون عملهم حجة كمرويهم، وقد كتب إليه الليث بن سعد في ذلك رسالة طويلة، وناقش الشافعي هذه المسألة في الأم))(٦١).

ويمكننا أن نجمل موقف الإمام الليث في رده على الإمام مالك في حجية عمل أهل المدينة في النقاط التالية:

- الليث يوافق مالكًا فيما ذهب إليه من مكانة المدينة ومقام الرسول بها وتلقي الصحابة مباشرة من الرسول صلى الله عليه وسلم.
- يقول الليث: ((وأما ما ذكرتَ من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمَهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه فكما ذكرتَ)).
- رد الليث على استشهاد مالك على حجية عمل أهل المدينة بقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٠] ... أن كثيرًا من هؤلاء السابقين خرجوا إلى الجهاد، واستقروا خارج المدينة، وأظهروا للناس في تلك البلاد كتاب الله وسنة رسوله، ولم يكتموهم شيئًا مما علموه، وقد عملوا بأمور في مصر والشام والعراق على عهد الخلفاء الراشدين، فلم يأمروهم بغيرها، مع اختلافهم في الفتوى في أشياء كثيرة، يقول الليث: ((وأما ما ذكرتَ من قول الله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] فإن كثيرًا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله؛ فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئًا علموه، وكان في كل جند منهم طائفة يُعلِّمون كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمرًا فسَّره القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه، فإذا جاء أمرٌ

(٦١) د. محمد علي السايس: نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، مجلة الأزهر، شوال ١٤٢٦هـ، ص: 98. وانظر: د. محمد بلتاجي: مناهج التشريع الإسلامي في القرن الثاني الهجري، مكتبة البلد الأمين- الأزهر، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، ص: ٥٩، ٦٠.

عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتوى في أشياء كثيرة، ولولا أني قد عرفتُ أن قد علمتَها كتبتُ بها إليك)).

- ودليل آخر هو اختلاف التابعين مِن بعدهم في الفتوى في أشياء كثيرة، بل إن أهل المدينة أنفسهم قد اختلفوا في أشياء عديدة. ويستشهد بما ورد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن وابن شهاب الزهري من خلاف، يقول الليث: ((ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتُهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفتَ، وحضرتُ وسمعتُ قولك فيه، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة يحيى بن سعيد وعبيد الله بن عمر وكثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسن منه؛ حتى اضطرك ما كرهتَ من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتُك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرتُ تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعه خير كثير وعقل أصيل ولسان بليغ وفضل مستبين وطريقة حسنة في الإسلام ومودة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله. وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضًا، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرتَ تركي إياه)).
- ذكر الليث بعض الأمثلة التفصيلية التي يستدل بها على مالك في مخالفة ما عليه أهل المدينة، ومنها:
- عدم الجمع بين الصلاتين في المطر: وذلك بعمل الصحابة في الشام في عدم الجمع بين الصلاتين بسبب المطر، مع أن مطر الشام أكثر من مطر المدينة، فلم يجمع أحد من الصحابة قط في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وشرحبيل. يقول الليث: ((وقد عرفتَ أيضًا عيب إنكاري إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله، لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطر، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل "، وقال: " يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة " وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح ، وكان أبو ذر بمصر والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص

وبحمص سبعون من أهل بدر وبأجناد المسلمين كلها وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن حصين ونزلها أمير المؤمنين على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – في الجنة سنين، وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط)).

- القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق: فكان أصحاب الرسول بالشام يقضون في مسائل القضاء بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين، بخلاف عمل أهل المدينة الذين يقضون بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق. يقول الليث: ((ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق، وقد عرفت أنه لم يزل يقضي بالمدينة به، ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم ولي عمر بن عبد العزيز، وكان كما قد علمت في إحياء السنن والجد في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس، فكتب إليه رزيق بن الحكم: إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين، ولم يجمع بين العشاء والمغرب قط ليلة المطر، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بخناصرة ساكنًا)).
- مسألة في مؤخر الصداق: فأهل المدينة يقضون في مؤخر الصداق أنه يدفع للمرأة متى أرادت، بخلاف ما كان يقضي به الصحابة والتابعون من أنه يدفع للمرأة بأحد الأجلين الموت أو الطلاق.
- الإيلاء بعد الأربعة أشهر إذا لم يفيء طلاق من غير احتياج إلى تطليق: بخلاف قول أهل المدينة في الإيلاء إنه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف – وإن مرت أربعة أشهر – فيفئ كما أمر الله أو يعزم الطلاق.
- التمليك تطليق: فكان زيد بن ثابت يقول: إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهي تطليقة ، وإن طلقت نفسها ثلاث فهي تطليقة. وقد كاد الناس يجمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق وان اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة. وان طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها إلا أن يرد عليها في مجلسه فيقول إنما ملكتك واحدة فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته .
- إذا تزوج أمة ثم اشتراها طلقت ثلاثا عليه وعكسه كذلك
- الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة: فأنكر الليث على مالك رأيه في تقديم صلاة الاستسقاء على الخطبة.
- الزكاة على الخليطين: أنكر الليث على مالك قوله في الخليطين من المال إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما نصاباً.

- من أحكام المفلس: أنكر الليث على مالك قوله إذا أفلس الرجل وقد باعه الرجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها أو انفق المشتري طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه.
- ما أعطى النبي من أسهم للزبير: أنكر الليث على مالك أنه كان يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث.

والخلاصة أن الليث ناصح مالكًا في أنه لم يأخذ بعمل أهل المدينة في جواز الجمع ليلة المطر بين المغرب والعشاء، والقضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق، ومؤخر الصداق، والقول في الإيلاء. وخالفه في الفتوى في تقديم الصلاة قبل الخطبة في الاستسقاء، ووجوب الزكاة على الخليطين حتى يملك كل منهما النصاب وعدمها، وبعض أحكام المفلس، وما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أسهم للزبير

• الإخلاص والصدق:

الإخلاص في الحوار أن يقصد المحاوِرُ بحوارِهِ وجه الله تعالى، فيُقْبِل على الحوار بنية خالصةٍ، ويبتغي مرضاة ربِّه تعالَى، ويرجو رحمته ورضاه في جميع أقواله وأفعاله، ويرتقب الأجر من الله تعالى، ويتجرد في دعوتِهِ ومحاوراته من حظوظ الدنيا، ويهتمُّ بأمر المدعوِّين ويرجو لهم الهداية، مقتديًا بأنبياء الله؛ إذ كانِ كل نبي يقول لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وهذه المراسلات كانت بين عالمين جليلين وإمامين كبيرين من أئمة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، وهما من القرون الفاضلة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية، وأجمعت الأمة كلها على فضلهما ومكانتهما، وشواهد المراسلات والمعاملات فيما بينهما تشهد لهما بالإخلاص والتجرد من حظ النفس واجتناب الهوى والبعد عما بين القرناء من التشاحن والتباغض، فلم يسعَ أي منهما إلى الانتصار لنفسه، ولم يسعيا إلى ابتغاء غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو تحقيق شهرة أو مغالبة خصم والظهور عليه، بل كان قصدهما ابتغاء وجه الله تعالى وطلب الحق وتوصيله إلى الآخرين، وقصد النصح والإرشاد.

وقد ذهب الجويني إلى أن الإخلاص هو أول وأهم الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المناظر، وفي ذلك يقول: ((فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته في امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء إلى الحق عن الباطل وعما يخبر فيه، ويبالغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل، ويتقي الله أن يقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه والتكسب والمماراة والمحك

والرياء، ويحذر أليم عقاب الله سبحانه ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر))(٦٢).

ومن الإخلاص اجتناب الهوى والتجرد من حظ النفس، فينبغي للمحاور أن يُغلب متابعة الحق على حظ النفس والانتصار لها ولكبريائها، وأن يكون هدفه من الحوار التجرد في طلب الحق وتوصيله إلى الآخرين، ويكون قصده من المناظرة النصح والإرشاد، وليس المغالبة والظهور على الخصم، يقول ابن الجوزي: ((المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب، وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق، وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل، وإذا خفي على أحدهم شيء نبهه الآخر، لأن المقصود كان إظهار الحق))(٦٣).

ويؤكد الغزالي على أهمية الإخلاص في حديثه عن شروط إباحة المناظرة، فيقول: ((التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروط وعلامات؛ منها أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد معاونه. ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا. ويشكره إذا عرَّفه الخطأ، وأظهره له))(٦٤).

والمحاور المخلص لا يسعى إلى الانتصار لنفسه، ولا إلى ابتغاء غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو تحقيق شهرة، بل يتجرَّد للوصول إلى الحق، يقول الغزالي: ((اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة))(٦٥).

كذلك ينبغي على المحاور التزام الصدق، فلا تحمله الرغبة في الغلبة والظهور على خصمه على الكذب؛ فإن الكذب مذموم، ويزداد إثمه إذا كان مطية لضياع الحق ونصرة الباطل؛ لأن فساده يتعدى إلى أديان الناس وعقائدهم.

ولهذا إذا سئل المناظر عن شيء لا يعلمه، فليقل: لا أعلم. وليتأدب بالهدي القرآني حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وليكن له في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة.

---

(٦٢) أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله الجويني: الكافية في الجدل، تقديم وتحقيق وتعليق: د. فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي- مصر، ١٣٩٩ه ١٩٧٩م، ص: ٥٢٩ .

(٦٣) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تلبيس إبليس، مرجع سابق، ص: ١٠٨.

(٦٤) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، جـ١ ص:٤٤.

(٦٥) المرجع السابق، جـ١ ص: ٤٥.

• **التواضع:**

من أهم ما ينبغي أن يتحلى به المحاور التواضع وتجنُّب العُجْب والغرور والكبرياء؛ فلا يحتقر الطرف الثاني، ولا يتكبر عليه، بل يُقدِّره ويحترمه ويتواضع له، يقول الجويني مؤكدًا أهمية اتصاف المتناظرين بالتواضع والبعد عن الكبر واحتقار الآخرين: ((فما يعود بنفع إلى صنعة الجدل المحافظة من كل واحد من المتجادلين على مرتبته، ولا يستحقر أحدهما صاحبه بما يقع له من الخطأ في مذهب أو دلالة أو غير ذلك... واستحقار الخصم كاستحقار يسير من النار، فإنه ينتشر من يسيرها ما يحترق به كثير من الدنيا))(٦٦).

وقد تجلت في الرسالتين مظاهر التواضع والأخوة والمحبة العظيمة المتبادلة، والتي تبدو في عبارات الثناء والدعاء المتبادل، وسؤال كل منهما عن حال الآخر وأهله وولده، وتمني دوام السلامة والاستعداد لبذل المعونة.

ومن عبارات التواضع والثناء الجميل وصف مالك لليث بقوله: ((وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاء منك)).

فهو يدعو له بالبقاء وتوفيق الله له، ويذكر له قيمته العلمية وما في ذلك من منفعة للناس.

وقد برز تواضع الإمام الليث في طلب العلم، فلم يستكبر على طلب العلم من الإمام مالك – وهو صنوه وقرينه – فأرسل إليه يستوثق من كتب منسوبة إليه، فيسارع مالك في إجابته، ويراجع تلك الكتب، ويختمها بخاتمه، ويعطيها لرسول الليث.

وقد رأينا الليث لا يختار لنفسه وصف الإمام أو الفقيه أو المجتهد، وإنما يكتفي بكلمات دالة على قمة التواضع؛ إذ يصف نفسه بأنه يُتْسَب للعلم، فيقول: ((وما أجد أحدًا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذًا لفتياهم فيما اتفقوا عليه مِنِّي)).

• **تقدير الخصم واحترامه:**

ينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل بين الأطراف وإعطاء كل ذي حق حقه، والاعتراف بمنزلته ومقامه، فيخاطب بالعبارات اللائقة، والألقاب المستحقة، والأساليب المهذبة. ولا شك أن تلطيف أجواء الحوار حينًا بعد حين بإسداء بعض عبارات الاحترام والتقدير للطرف الآخر- أدعى إلى كبح جماح الانفعال لدى الطرف الآخر وتهدئة جموحه نحو التعدي وعدم الموضوعية؛ مما يقود إلى قبول الحق، والبعد عن الهوى. ويتضح هذا الأدب - بلا شك - في المحاورة بين هذين الإمامين الجليلين، ومن ينظر في

(٦٦) الجويني: الكافية في الجدل، مرجع سابق، ص: ٥٤١.

رسائلهما يجد ذلك التقدير والاحترام في إلقاء التحية والمخاطبة بالعبارات اللائقة المهذبة وإظهار الفرح والسرور بحال الآخر والسؤال عن أحواله وعن أولاده والدعاء بصلاح الحال ودوام النعمة.

- **حسن الاستماع:**

من أهم آداب الحوار أن يحسن كل طرف الاستماع إلى آراء الطرف الآخر، فالحوار عملية تبادل للآراء، فلا يغفل المتحاورون عن الاستماع لبعضهم استهوانًا أو تسفيهًا لآراء الآخرين، ولا يتمادى بعضهم في الحديث حتى يجور على الوقت المخصص للآخرين.

ولنا الأسوة في أنبياء الله ورسله؛ فإنهم كانوا يصغون جيدًا لمحاوريهم، بل كانوا يتفضلون فيمنحونهم الفرصة الأولى للإدلاءِ بآرائهم وحججهم، فعندما قال السحرة لنبي الله موسى: ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ [طه: ٦٥] ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه: ٦٦] فأعطاهم الفرصة الأولى للإدلاء بحجتهم... (٦٧)

فالمسلم مكلف بالاستماع تطييبًا لخاطر من يتكلم، وذلك ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم في حواره مع الكفار والمخالفين. كما أورد ابن هشام في سيرته جلوس النبي صلى الله عليه وسلم واستماعه إلى عتبة بن ربيعة وهو يعرض عليه حطامًا من الدنيا، ويطلب منه التخلي عن دعوته ودينه، حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((أقد فرغت يا أبا الوليد؟)) قال: نعم. قال: ((فاسمع مني)) قال: أفعل))(٦٨).

ونستلهم هذا الأدب السامي من عطاء بن أبي رباح، إذ يقول: ((إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له، كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد))(٦٩).

وعلى المحاور ألا يشعر خصمه بالدونية وبأنه على الخطأ الذي لا صواب معه ولا إمكان صدور أي صواب عنه، يقول الجويني: ((وعلى كل واحد منهما أن يُقبل على خصمه الذي يكلمه بوجهه في خطابه المتكلم في كلامه والمستمع في استماعه))(٧٠).

فالحوار الجيد يكون باستماع كل طرف للآخر وإمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه وعدم التلفت والإقبال بالوجه عليه والوعي لما يقول.

---

(٦٧) أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، مرجع سابق، ص: ٥٥،٥٧.

(٦٨) أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي _ مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م، جـ ١ ص: ٢٩٤.

(٦٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مجع سابق، جـ٥ ص: ٨٦. وانظر: د. منقذ بن محمود السقار: الحوار مع أتباع الأديان مشروعيته وآدابه، رابطة العالم الإسلامي، ص: ٥٦.

(٧٠) الجويني: الكافية في الجدل، مرجع سابق، ص: ٥٣٤.

و لا بد في الحوار الجيد من سماع جيد؛ مما يقود إلى فتح القلوب، وراحة النفوس، ويُشْعِرُ بجدية المحاور، وتقدير المخالف، وأهمية الحوار.

• الحلم وسعة الصدر:

على المحاور أن يتحلى بسعة الصدر والحلم، ويبتعد عن التدابر والتباغض، يقول الجويني: ((وعليهما جميعًا أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه في نوبته))(٧١).

ومن الحلم أنه إذا بدرت من خصمه في جداله كلمة كرهها غض طرفه عليها، ولم يقابله بمثلها؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وإذا أخطأ أحدهما وأراد الإقالة، فعلى خصمه أن يقيله، وإذا انتهى الحوار إلى إصرار كل على رأيه، فمقتضى الحكمة الأخذ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الحج: ٦٨-٦٩). وقوله: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤]. مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة.

ومن الفطنة في المحاور أن يغلق باب المناظرة قبل أن يصل الأمر إلى هذا الطريق المسدود إذا ظهرت بوادر العناد والتعنت من الطرف الآخر، وغاب الهدف من الحوار والمناظرة فالأولى وقف المناظرة، وعدم فتح باب المناقشة في الوقت الحالي، حتى تهدأ النفوس حفاظا على الود بين المتحاورين، يقول ابن حميد ((ومن الجميل، وغاية النبل، والصدق الصادق مع النفس، وقوة الإرادة، وعمق الإخلاص؛ أن تُوقِفَ الحوار إذا وجدتَ نفسك قد تغير مسارها، ودخلتْ في مسارب اللجج والخصام، ومدخولات النوايا))(٧٢).

• الرفق والرحمة:

ونستفيد – أيضًا - من تلك الرسالتين أدبًا عظيمًا من أهم آداب الحوار، ألا وهو الرحمة والرفق والإشفاق على المخالف؛ إذ يجب على المحاور أن يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، كما يجب عليه أن ينصح لهم، وأن يشفق عليهم، وأن يساعد خصمه في الوصول إلى الحق، وذلك بتجنب ما ينفره ويصده عن قبول الحق متى ما تبين له، يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول القرطبي: ((وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينًا، ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مداهنة ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿ فقولا له قولا لينًا ﴾ [طه: ٤٤]، فالقائل ليس

(٧١) المرجع السابق، ص: ٥٣٣.

(٧٢) المرجع السابق، ص: ٣٨.

بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه))(٧٣).

ويقول الجويني: ((وكن مع خصمك مستبشرًا غير عبوس؛ فتكون أنت وخصمك عند ذلك من دواعي الغضب والضجر أبعد))(٧٤).

بل إن اللطف والترفق يكون أولى مع المسترشدين المهتدين الذين يقصدون التعرف على الحق، فإذا ناظرت أحدًا من هؤلاء فينبغي أن ((لا تدع من التلطف والتساهل والكشف والبيان والتقريب شيئًا إلا وتأتي به، لأنه كلما بالغت في المساهلة معه ازداد طمعًا في تفهم الحق، وازداد حرصًا ومواظبة عليه إلى أن يوفقه الله سبحانه للهداية))(٧٥).

وعن أثر الرحمة في الطرف الآخر أثناء المحاورة يقول أحد الباحثين: ((والرحمة جسرٌ بين المحاور والطرف الآخر ومفتاح لقلبه وعقله، وخاصة عندما يشعر بها ويلمسها فتخرج ما في نفسه من أمراض الكبر والبطر والحقد والحسد ونحوها، فهي بذلك وسيلة لجمع القلوب وتأليف الأفئدة، وكلما ظهرت الرحمة على المحاور واتضحت معالمها كلما انشرح صدر الخصم واقترب من محاوره وأوشك على الإذعان والاقتناع))(٧٦).

فلا بد من إظهار روح المودة والأخوة قبل الحوار والمناظرة وأثناءهما وبعدهما، يقول ابن تيمية: ((... وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين))(٧٧).

• القول الحسن:

وهذا أدب عظيم يجعل المُحاور في حواره مُلتزمًا بالحُسنى في القول والمجادلة، يقول تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

يقول ابن كثير: ((أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب))(٧٨).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣). ذكر القرطبي أن طلحة بن عمر قال: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيَّ حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ. فقال:

(٧٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج٢ ص: ١٦.
(٧٤) الجويني: الكافية في الجدل، مرجع سابق، ص: ٥٣٢.
(٧٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٧٦) د أحمد محمد الشرقاوي الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، مرجع سابق، ص: ١٠، ١١.
(٧٧) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، جـ ٢٤ ص: ١٧٢.
(٧٨) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ، جـ٤ ص: ٥٢٦.

لا تفعل، يقول الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي))(٧٩).

فينبغي على المحاور التزام القول الحَسَن، وتجنب الإساءة إلى الخصم، وترك مقاطعته، وعدم الصياح في وجهه أو استصغاره أو احتقاره ، ونحو ذلك مما يسيء إلى خصمه.

ويقتضي التزام القول الحسن والرفق واللين وحسن الخطاب أن يتجنب المحاور منهج التحدي والإفحام، وأن ينأى بنفسه عن أسلوب الطعن والتجريح والسخرية، وأن يبتعد عن ألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز.

ومن ذلك أيضًا عدم التشهير بالخصم عند غلبته في مجلس المناظرة، لأن هذا ربما يجر إلى الرياء والسمعة، ويسبب النفور والشحناء؛ يقول ابن الجوزي: ((... ومن ذلك ترخّصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلمت مع فلان فما قال شيئًا! ويتكلم بما يوجب التشفي من عرض خصمه بتلك الحجة))(٨٠).

وإذا عُرض لأي شخص قول أو رأي لا يرى فيه الصواب فمن الحكمة أن يفنده برَويَّة ورفق مستندًا إلى الأدلة والبراهين، دون اللجوء إلى التجريح، الذي لا طائل تحته، إلا إلجفاء بين الإخوة، ((فإن كسب القلوب مُقدَّم على كسب المواقف. وقد تُفحِم الخصم، ولكنك لا تقنعه، وقد تُسكِته بحجة، ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه، وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وُجِدَت القناعة العقلية. والحرص على القلوب واستلال السخائم أهم وأولى عند المنصف العاقل من استكثار الأعداء واستكفاء الإناء. وإنك لتعلم أن إغلاظ القول، ورفع الصوت، وانتفاخ الأوداج، لا يولد إلا غيظا وحقدًا وحَنَقا. ومن أجل هذا فليحرص المحاور ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة فهذا رعونة وإيذاء للنفس وللغير...))(٨١).

على أن هناك حالات استثنائية يسوغ فيها اللجوء إلى إفحام الخصم وإسكاته؛ وذلك إذا استطال وتجاوز الحد، وطغى وظلم، وكابر مكابرة بيِّنة، وفي مثل هذا جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

• الأمانة والموضوعية:

من أدب الحوار الالتزام بالأمانة والموضوعية؛ فينقل المحاورُ الكلامَ في سياقه الذي ورد فيه، ولا يجتزئ النصوص والأدلة من سياقاتها المختلفة؛ ليختار منها ما يصلح له، ويدل على ما يريد، ويترك الباقي، فهذا ينافي

(٧٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج٢ ص: ١٦.

(٨٠) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، مرجع سابق، ص: ١٠٨.

(٨١) صالح بن عبد الله بن حميد: أصول الحوار وآدابه في الإسلام، مرجع سابق، ص: ٢٦.

الأمانة، بل على المحاور أن ينقل الكلام كاملًا، وأن يأتي بجميع الأدلة والنصوص الواردة في مسألة بحثه ليستنبط منها الحكم الصحيح.

ومن الموضوعية التوثيق العلمي؛ فالمحاور الجاد لا يستدل بشائعات أو ظنون أو أوهام استقرت في عقله أو في عقل من أمامه من الناس؛ بل يستدل بالنصوص الصحيحة والأدلة الصريحة والبراهين الواضحة والإحصاءات الدقيقة الثابتة، فبراهين العلماء تستدل بحقائق علمية، وتوثِّق القول، بعيدًا عن الظنون والأوهام والشائعات(٨٢).

وكذلك يلتزم المحاور بموضوع الحوار الأساسي، ولا يخرج عنه، ولا ينتقل إلى غيره إلا بعد استيفائه. وهذه مسألة منهجية وتنظيمية في غاية الأهمية، وعدم الالتزام بها يؤدي إلى خلط المسائل ببعضها، فلا بد من ضبط أولويات الحوار والالتزام بموضوعه.

وليس من الموضوعية ما يفعل بعض الناس الذين يراوغون ويتهرَّبون من المواجهة والمناقشة الجادة، وربما يتفلتون من الحوار الهادف بالسخرية والتهكم والهزل وإثارة الزوابعِ وتشتيت الأذهان، وهنا ينبغي الإعراض عنهم.

وإذا طبَّقْنا هذا الكلام على رسالة الليث بن سعد وجدناه ملتزمًا بالموضوع الأساسي، قاصدًا له، مستدلا عليه بالنصوص الصريحة والحجج والأدلة والبراهين، ولم يخرج منه إلى موضوعات فرعية، وما ساقه من الأدلة والبراهين والأمثلة ما هي إلا استدلالات لرأيه في هذا الموضوع.

وترى التوثيق العلمي في أعلى صوره، وذلك باستدلال الليث بأدلة ووقائع وأحداث لا يمكن إنكارها، ولا يمكن العدول عن وجه الاستشهاد بها.

• التجرد والإنصاف:

لم تكن هذه الرسائل بين مالك والليث مجابهة وإفحام، وإنما كانت حوارًا هادفًا بريئًا من التعصّب والعنف، بعيدًا عن الهوى والانفعال، خالصًا لطلب الحق، ساعيًا إلى الوصول إليه، يتسم باللطف والرحمة والنصح في الخلوة، وهذا الحوار هو الذي يوصل إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، وهو الذي يحقق أهداف المحاور من عرض وجهة نظره وبراهينه في القضايا التي هي موضوع الحوار، وتعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات، سعيًا إلى إقناعه بالحق والصواب.

وكان مقصود أئمة السلف المناصحة بإظهار الحق، وكانوا ينتقلون من دليل إلى دليل، وإذا خفي على أحدهم شيء نبَّهَه الآخر، فكانوا يقبلون الحق ممن أورده عليهم - وإن كان صغيرًا - ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم، ولذا يعيب ابن الجوزي على الفقهاء الذين

(٨٢) انظر: أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، مرجع سابق، ص: ٥٣، د. عبد الرب نواب الدين آل نواب: وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار، مرجع سابق، ص: ٣٠. د أحمد محمد الشرقاوي: الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام، مرجع سابق، ص: ٤٠.

يجحدون الحق، ويرى أن هذا من تلبيس الشيطان عليهم، فيقول: ((ومن ذلك أن أحدهم يتبين له الصواب مع خصمه، فلا يرجع، ويضيق صدره؛ كيف ظهر الحق مع خصمه؟! وربما اجتهد في رده مع علمه أنه الحق وهذا من أقبح القبيح؛ لأن المناظرة إنما وضعت لبيان الحق، وقد قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرتُ أحدًا فأنكر الحجة إلا سقط من عيني، ولا قبلها إلا هبتُه، وما ناظرتُ أحدًا فباليت مع من كانت الحجة؟ إن كانت معه صرتُ إليه))(٨٣).

وقال أيضًا: ((ما ناظرتُ أحدًا قط إلا أحببتُ أن يُوَفَّق ويُسدَّد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحدًا إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه))(٨٤).

ومن مقولاته المحفوظة ما حكاه الربيع قال: سمعتُ الشافعي يقول: ((ما ناظرْتُ أحدًا على الغَلَبة إلا على الحق عندي))(٨٥).

فالشافعي يوصي أصحابه باتباع الحق وقبول السنة بغض النظر عمن صدر عنه الكلام؛ وهذا يدل على أنه لم يكن له قصد إلا ظهور الحق ولو كان على لسان غيره ممن يناظره أو يخالفه.

والتجرد في المناظرة يقتضي الرغبة في الوصول إلى الحق، وقبوله ممن قال به، وإلا أصبح الحوار عبثًا، يقول ابن حميد: ((ويدخل في باب الإخلاص والتجرد توطين النفس على الرضا والارتياح إذا ظهر الحق على لسان الآخر ورأيه، ويعينه على ذلك أن يستيقن أن الآراء والأفكار ومسالك الحق ليست ملكا لواحد أو طائفة، والصواب ليس حكرًا على واحد بعينه. فهَمُّ المخلِص ومهمته أن ينتشر الحق في كل مكان، ومن أي مكان، ومن أي وعاء، وعلى أي فم))(٨٦).

فغاية الحوار هي الوصول إلى الحق والالتزام الجادُّ به وبما يترتب عليه، وقد ذم الله تعالى الذين يجادلون في الحق بعدما تبين ووضح، قال تعالى: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦]. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: ((فينبغي لمن لزمته الحجة، ووضحت له الدلالة أن ينقاد لها، ويصير إلى موجباتها، لأن المقصود من النظر والجدل طلب الحق واتباع تكاليف الشرع؛ قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨]))(٨٧)

(٨٣) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: تلبيس إبليس، مرجع سابق، ص: ١٠٨.
(٨٤) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق، جـ ٩ ص: ١١٨.
(٨٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، جـ ١٠ ص: ٧٦.
(٨٦) صالح بن عبد الله بن حميد: أصول الحوار وآدابه في الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة-مكة، ١٤١٥ه ١٩٩٤م، ص: ٣٧.
(٨٧) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط٢، ١٤٢١ه، جـ٢ ص: ١١٢.

والمسلم يرجع إلى الحق متى تبين، وينقاد له، ويلتزم به، ويفرح به، بل هذا من لوازم الإيمان؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فإذا انتهى الحوار ورجح رأي أحد الطرفين، فعلى الطرف الثاني أن يقبل الحق ممن جاء به حتى ولو كان أعدى أعدائه، ويعدّ ذلك ضالته المنشودة، فالمحاور باحث عن الحقيقة أنَّى وجدها فهو أحق بها.

يقول الحافظ عبد الغنى بن سعيد: ((لما رددتُ على أبى عبد الله الحاكم الأوهام التي في المدخل إلى الصحيح بعث إليَّ يشكرني ويدعو لي، فعلمتُ أنه رجل عاقل))(٨٨).

فالمبادرة إلى الرجوع عند ظهور الحق مع صاحبه وترك ما سواه من خصال أهل الإنصاف، كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما-: ((... ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحقّ فإنّ الحقّ قديم ومراجعة الحقّ خير من التّمادي في الباطل...))(٨٩).

فالحوار ليس معركة حربية غرضها الانتصار وكسر الخصم، بل على المحاور أن يفترض - ولو نظريًا - احتمال ثبوت الحق على لسان الخصم، وذلك أدب جم من آداب الحوار.

ونجد هذا التجرد والإنصاف واضحًا وجليًّا في كلام الليث السابق؛ إذ يتجلى الإنصاف عنده في أكثر من موضع من رسالته، منها:

- حكايته لرأي مالك باختصار في مقدمة رسالته وموافقته لمالك فيما أثبته من وجوب الأخذ بالكتاب والسنة، ومكانة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضل علمائها، ثم عقب على كلامه بقوله: ((وقد أصبتَ بالذي كتبتَ به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع منى بالموقع الذي تحب)).
- موافقته لمالك فيما ذكر من مقام الرسول بالمدينة ونزول القرآن بها عليه، إذ يقول: ((وأما ما ذكرتَ من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمَهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعًا لهم فيه فكما ذكرتَ)).
- ومن الإنصاف ذكر إيجابيات المحاور وموافقته فيما يصدر عنه من حق، وممارسة العدل معه، فالمسلم رائده الحق، والحكمة ضالته، والحق رائده، يأخذه ويُقرُّ به - بلا غضاضة - من أي طريق جاء.

---

(٨٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، جـ ٣ ص: ١٦٧.

(٨٩) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، مرجع سابق، جـ١ ص: ٢٧٥.

وفي حديث الليث عن خلاف التابعين ومن جاء بعدهم ذكر خلافه لربيعة بن أبي عبد الرحمن في بعض المسائل وموافقة مالك في إنكاره على ربيعة. ومع هذا الاختلاف بينهم وبين ربيعة فإنه يثني عليه بأحسن الثناء ويمدحه ويدعو له، يقول الليث: ((ومع ذلك - بحمد الله - عند ربيعه خير كثير وعقل أصيل ولسان بليغ وفضل مستبين وطريقة حسنة في الإسلام ومودة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له، وجزاه بأحسن من عمله)).

فهذا هو الإنصاف في أجلى صوره، وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بالعدل والإنصاف، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨]. يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: ((أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد؛ صديقا كان أو عدوا)) (٩٠).

فاتباع الحق، والسعي للوصول إليه، والحرص على الالتزام به هو الذي يقود الحوار إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء. والعاقل – فضلا عن المسلم – الصادق طالب حق، باحث عن الحقيقة، ينشد الصواب، ويتجنب الخطأ؛ فينبغي عليه التسليم بالحق من أي مصدر جاء؛ فالوصول إلى الحق هو غاية الحوار. وليس غايته إفحام الخصم.

• حُسن الختام:

يختم الإمام مالك رسالته بتأكيد إخلاصه في النصيحة، وصدقه في حب الخير لأخيه الإمام الليث، ثم يدعو له بالتوفيق وطاعة الله ورسوله، فيقول: ((فانظر رحمك الله فيما كتبتُ إليك فيه لنفسك، واعلم أني لأرجو ألا يكون دعاني إلى ما كتبتُ إليك إلا النصيحة لله، والنظر إليك، والضن بك، فأنزلْ كتابي منك منزله، فإنك إن تفعل تعلم أني لم آلك نصحًا، وفقنا الله وإياك بطاعته وطاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل أمر وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله)).

ولصدق الرسالة، وإخلاص كاتبها، ولهذا الأدب الجم الذي عبّرتْ عنه، فقد وقعتْ من الإمام الليث بأحسن موقع، فيجيبها بمثلها، ويرد عليها قائلا: ((وقد تركتُ أشياء كثيرة من أشباه هذا، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مِثلك، مع استئناسي بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أسَرُّ بذلك، كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليك ورحمة الله)).

---

(٩٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، جـ٣ ص: ٥٦.

إنه ختام رائع فيه سمات المودة والأدب والحب والاحترام، وذلك يدل على نفس كريمة نبيلة.

وبهذا الختام نكون قد انتهينا من تحليل الرسالة لنصل إلى خاتمة البحث فيما يلي:

• خاتمة:

في ختام حديثنا عن آداب الحوار والمناظرة من خلال رسالة الإمام الليث إلى الإمام مالك نوجز أهم النتائج المتعلقة بهذه الدراسة فيما يلي:

- أولاً: للحوار أهمية كبيرة ودور مهم في التواصل والتفاهم مع الآخرين، فهو وسيلة للتعارف والتآلف، وهو أسلوب من أهم أساليب التربية الإسلامية وأفضلها، ومنهج للدعوة والإصلاح. ولا يقصد منه مجابهة الخصم وإفحامه ومحاولة الظهور عليه وتعجيزه عن الرد، وإنما المقصود والغاية منه إقامة الحجة، ودفع الشبهة، وبيان الفاسد من الأقوال. وهو تعاون بين المتناظرين على معرفة الحقيقة والتَّوصُّل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها للوصول إلى الحق.
- ثانيًا: اعتنى المؤلفون – قديمًا وحديثًا- بأدب الحوار والمناظرة، ووضعوا له الأصول والقواعد، حتى لا يتصدى له إلا من التزم بمعاييره وعرف فوائده وآدابه، وتأهل له بالعلم النافع والاستقامة على المنهج، فضلا عن الإخلاص والتجرد والتلطف بالآخر والرفق به والإشفاق عليه.
- ثالثًا: عاش الليث بن سعد واحدًا وثمانين عامًا، واهتم بطلب العلم وتحصيله منذ صغره، وكان حريصًا على رواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإحياء سنته. وله منزلة فقهية لا تقل عن غيره من أصحاب المذاهب التي انتشرت وذاعت، فهو من أعظم فقهاء القرن الثاني الهجري، وكان له مذهب خاص به، ومع هذا لم يجد من أصحابه وتلاميذه من يُدَوِّن المسائل عنه، مما دفع الإمام الشافعي إلى أن يقول: ((كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به)).
- وقد بسط الله تعالى له في الرزق؛ فكان صاحب ضياع كثيرة وأموال وفيرة، فلم يغتر بالغنى والثراء الواسع، ولم يَسْعَ إلى اكتناز المال؛ بل كان آية في الجود والكرم، ومثالا حيًّا للغني الشاكر.
- رابعًا: التقى الليث بمالك مرات عديدة، وكانت بينهما مناقشات ورسائل متبادلة، تبادلا فيها النصح والإرشاد. وقد بلغ مالك أن الليث يفتي في بعض المسائل بمصر بما يخالف ما عليه العمل بالمدينة، فكتب إليه هذه الرسالة، وقد رد الليث على مالك في رسالة طويلة، واتسمت المراسلات بينهما بالوُدِّ والأُلفة والمحبة العظيمة والأُخُوَّة العميقة والمودة المتبادلة بين الإمامين العظيمين. ومن يقرؤهما لأول مرة لا يتوقع أن هذه مناظرة علمية وحوار جاد في مسائل مختلف فيها، ولكنه الأدب العالي للحوار والمناظرة.

- خامسًا: هذه المراسلات بين عالمين جليلين وإمامين كبيرين من أئمة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، وهما من القرون الفاضلة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية، وأجمعت الأمة كلها على فضلهما ومكانتهما، وشواهد المراسلات والمعاملات فيما بينهما تشهد لهما بالإخلاص والتجرد من حظ النفس واجتناب الهوى والبعد عما بين القرناء من التشاحن والتباغض، فلم يسعَ أي منهما إلى الانتصار لنفسه، ولم يسعيا إلى ابتغاء غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو تحقيق شهرة أو مغالبة خصم والظهور عليه، بل كان قصدهما ابتغاء وجه الله تعالى وطلب الحق وتوصيله إلى الآخرين، وقصد النصح والإرشاد.
- سادسًا: الموضوع الأساسي لهذه المراسلات هو عمل أهل المدينة، فالإمام مالك يرد أخبار الآحاد التي تخالف ما يطلق عليه عمل أهل المدينة، ويعتبره حجة مقدمة على القياس وعلى خبر الواحد.
- وقد رد الليث على مالك وناصحه في رسالته في أنه لم يأخذ بعمل أهل المدينة بأدلة تفصيلية وحجج قوية، ووافق الشافعيُّ وبعضُ الأئمة الليثَ فيما ذهب إليه
- سابعًا: من أهم ما ينبغي أن يتحلى به المحاور التواضع وتجنُّب العُجْب والغرور والكبرياء والبعد عن التعالي والمباهاة وإظهار الفضل على غيره، ولا يسعى إلى الانتصار لنفسه، ولا إلى ابتغاء غرض دنيوي، كتحصيل مال أو جاه أو تحقيق شهرة، بل يتجرَّد للوصول إلى الحق.
- وقد تجلت في الرسالتين مظاهر التقدير والاحترام والتواضع والأخوة والمحبة العظيمة المتبادلة، والتي تبدو في إلقاء التحية والمخاطبة بعبارات الثناء اللائقة المهذبة والدعاء المتبادل، وإظهار الفرح والسرور بحال الآخر، والسؤال عن أحواله وعن أولاده، والدعاء بصلاح الحال ودوام النعمة، وتمني دوام السلامة والاستعداد لبذل المعونة.
- ثامنًا: لا بد أن نزن كل مسألة شرعية خلافية بميزان الشريعة، وأن نعرض ما يقال من الكلام في المطالب الشرعية على كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم - فإن وافق الكتاب والسُّنة فهو حق يُقبل، وإن خالفهما فهو باطل يُرَد. وهذا مبدأ أساسي لا يختلف عليه أحد من الأئمة والعلماء، كما ينبغي الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها؛ فيبدأ الطرفان بمواضع الاتفاق والنقاط المشتركة بينهما فيما يخص موضوع الحوار، ويجعلانها منطلقا لما بعدها.
- تاسعًا: لم تكن هذه الرسائل بين مالك والليث مجابهة وإفحام، وإنما كانت حوارًا هادفًا بريئًا من التعصّب والعنف، بعيدًا عن الهوى والانفعال، خالصًا لطلب الحق، ساعيًا إلى الوصول إليه، يتسم باللطف والرحمة والنصح في الخلوة، وهذا الحوار هو الذي يوصل إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا

التواء، وهو الذي يحقق أهداف المحاور من عرض وجهة نظره وبراهينه في القضايا التي هي موضوع الحوار، وتعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات، سعيًا إلى إقناعه بالحق والصواب.

- عاشرًا: من أدب الحوار والمناظرة إنصاف المخالف بذكر إيجابياته وموافقته فيما يصدر عنه من حق، فالمسلم ضالته الحكمة، ورائده الحق، يأخذه ويُقرُّ به - بلا غضاضة - من أي طريق جاء. وكان مقصود أئمة السلف المناصحة بإظهار الحق، فكانوا يقبلونه ممن أورده عليهم - وإن كان صغيرًا - ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم. ونجد هذا التسليم بالحق وموافقة الطرف الآخر واضحًا وجليًّا في كلام الليث السابق؛ إذ يتجلى الإنصاف عنده في أكثر من موضع من رسالته.
- حادي عشر: من أدب الحوار الالتزام بالأمانة والموضوعية؛ والالتزام بموضوع الحوار الأساسي، وعدم الخروج عنه، وقد وجدنا الإمام الليث ملتزمًا بالموضوع الأساسي، قاصدًا له، مستدلا عليه بالنصوص الصريحة والحجج والأدلة والبراهين، ولم يخرج منه إلى موضوعات فرعية، وترى التوثيق العلمي في أعلى صوره، وذلك باستدلال الليث بأدلة ووقائع وأحداث لا يمكن إنكارها، ولا يمكن العدول عن وجه الاستشهاد بها.
- ثاني عشر: نستفيد – أيضًا - من تلك الرسالتين أدبًا عظيمًا من آداب الحوار، وهو الرحمة والرفق والإشفاق على المخالف؛ إذ يجب على المحاور أن يسعى لهداية الآخرين واستقامتهم، كما يجب عليه أن ينصح لهم وأن يشفق عليهم، وأن يساعد خصمه في الوصول إلى الحق.
- وينبغي على المحاور التزام القول الحسَن، وتجنب الإساءة إلى الخصم، والتحلي بالحلم والصبر، والبعد عن التدابر والتباغض، وتقدير الخصم واحترامه والتواضع له وعدم التكبر عليه.
- كما ينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل وإعطاء كل ذي حق حقه، والاعتراف بمنزلته ومقامه، فيخاطب بالعبارات اللائقة، والألقاب المستحقة، والأساليب المهذبة.
- وتتضح هذه الآداب - بلا شك - في المحاورة بين هذين الإمامين الجليلين، وقد سبق توضيح ذلك.
- ثالث عشر: من أهم آداب الحوار أن يحسن كل طرف الاستماع إلى آراء الطرف الآخر، فالحوار عملية تبادل للآراء، والحوار الجيد يكون باستماع كل طرف للآخر مما يقود إلى فتح القلوب، وراحة النفوس، ويُشْعِر بجدية المحاور، وتقدير المخالف، وأهمية الحوار.
- رابع عشر: تراثنا الإسلامى مليء بالكثير من نماذج الحوار والمناظرات المثمرة بين الأئمة والعلماء، ونحن فى حاجة شديدة إلى هذه الصور لتكون لنا قدوة ونبراسًا يستضيء به شبابنا؛ فيسيرون على هدى من السلوك الذى ينهل من معين الكتاب والسنة، ويعمل بالحق ويجاهد فى سبيله.

• مراجع الدراسة:

١- د. أحمد إدريس الطعان: منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية، كلية الشريعة- سوريا.
٢- أحمد بن حجر العسقلاني: الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية، المطبعة الأميرية ببولاق – مصر، ١٣٠١هـ.
٣- د. أحمد بن سيف الدين تركستاني: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٤- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية: الرد على المنطقيين، دار المعرفة، بيروت، لبنان
٥- ،،،: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م،
٦- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٩هـ.
٧- أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م
٨- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي: الفقيه و المتفقه، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.
٩- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
١٠- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس،، دار صادر – بيروت
١١- د أحمد محمد الشرقاوي: الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام "دراسة موضوعية " بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي بجامعة الشارقة، ١٤٢٨هـ.
١٢- د. أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
١٣- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٤، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
١٤- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيريدار، إحياء التراث العربي-،١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م، ط إحياء التراث.
١٥- ،،،: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ.
١٦- إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى – بغداد ١٩٥٥.
١٧- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني العكبري: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.
١٨- بسام داود عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة، ط١، ١٤١٨هـ.
١٩- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٧٣م.
٢٠- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم- دمشق، الدار الشامية – بيروت، ١٤١٢هـ.
٢١- أبو منصور حمد بن أحمد بن الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م.
٢٢- د. خالد العروسي الترخُّص بمسائل الخلاف ضوابطه وأقوال العلماء فيه. بحث لمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، العدد ٢٣.

٢٣- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال- القاهرة.

٢٤- رينهارت بيتر آن دُوزي: تكملة المعاجم العربية. نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.

٢٥- أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط ٢.

٢٦- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد زكي، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط ٣، ٢٠٠١م.

٢٧- صالح بن عبد الله بن حميد: أصول الحوار وآدابه في الإسلام، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة-مكة، ١٤١٥ه ١٩٩٤م.

٢٨- طه جابر فياض العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام-المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا - الولايات المتحدة الأميريكية-:١٩٨٧ م.

٢٩- د. عبد الحليم محمود: الليث بن سعد إمام أهل مصر، دار المعارف –القاهرة.

٣٠- د. عبد الرب نواب الدين آل نواب: وسطية الإسلام ودعوته إلى الحوار.

٣١- عبد الرحمن بن أبي بكر جلا ل الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.

٣٢- ''': الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، تحقيق: الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، عمادة شؤون المكتبات - جامعة الملك سعود، الرياض.

٣٣- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٣٤- ''': زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٢٢هـ.

٣٥- ''': صفة الصفوة. تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٦- ''': المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢.

٣٧- عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: خليل شحادة: دار الفكر، بيروتالطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٨- عبد الستار الهيتي: الحوار الذات والآخر، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، ع ٩٩، السنة الرابعة والعشرون، مارس ٢٠٠٤م.

٣٩- د. عبد اللطيف حمزة: القلقشندي في كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل، سلسلة أعلام العرب (١٢) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢م.

٤٠- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله الجويني: الكافية في الجدل، تقديم وتحقيق وتعليق: د. فوقية حسين محمود، مطبعة عيسى البابي الحلبي- مصر، ١٣٩٩ه ١٩٧٩م.

٤١- أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي _ مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.

٤٢- عبد الوهاب بن الحسين الآمدي: شرح الآمدي على الرسالة الوالدية، وهي متن الآداب للعلامة المرعشي الشهير بساجقلي زاده، في آداب البحث والمناظرة، تحقيق: عبد الحميد هاشم العيساوي، دار النور- عمان، ٢٠١٤هـ.
٤٣- عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع، مطبعة المدني – مصر، ص: ٢٥٧..
٤٤- أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
٤٥- أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
٤٦- علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني: التعريفات: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
٤٧- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي: تفسير الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.
٤٨- عمر بن عبد الله كامل: آداب الحوار وقواعد الاختلاف،، بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
٤٩- عياض بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب.
٥٠- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الدعوة- القاهرة.
٥١- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٠٠١م.
٥٢- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
٥٣- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٥٤- ''' : سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت،طـ ٢، ١٤٢٩ه ٢٠٠٨م
٥٥- أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ مـ.
٥٦- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم: دار الكتب العلمية - ييروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٥٧- د. محمد بلتاجي: مناهج التشريع الإسلامي في القرن الثاني الهجري، مكتبة البلد الأمين- الأزهر، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
٥٨- أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين الزرقاني المالكي: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٥٩- زين الدين محمد عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٣٥٦ ه.
٦٠- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي: إكمال الأعلام بتثليث الكلام، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
٦١- د. محمد علي السايس: نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، مجلة الأزهر، شوال ١٤٢٦هـ، ص: 98.
٦٢- محمد عميم الإحسان المجددي البركتي: التعريفات الفقهية: دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٦٣- محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي: آداب البحث والمناظرة، تحقيق سعود بن عبد العزيز العريفي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد- مكة، مجمع الفقه الإسلامي- جدة، ١٤٢٦هـ.
٦٤- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني مرتضى الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
٦٥- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت.
٦٦- أبو الفضل محمد بن مكرم بن على ابن منظور الإفريقى: لسان العرب، دار صادر – بيروت.
٦٧- مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى – بغداد، ١٩٤١م.
٦٨- مناع بن خليل القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبة، ط ٥، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
٦٩- د. منقذ بن محمود السقار: الحوار مع أتباع الأديان مشروعيته وآدابه، رابطة العالم الإسلامي، ص: ٥٦.
٧٠- أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي: المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.
٧١- أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د. بشار عواد معروف: مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٥ ١٩٨٠.
٧٢- د. يوسف عبد الله الشبيلي: مذكرة أدب الجدل، معهد العلوم الإسلامية والعربية بأمريكا.
٧٣- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
٧٤- أبو زكريا يحيى بن معين: تاريخ ابن معين (رواية الدوري) تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة، ١٣٩٩ ه ١٩٧٩م.